

صور من حياة الصحابيات

د. عبد الرحمن رافت الباشا

مصدر هذه المادة:



دار الـكتـاب الـاسـلامـي

في هذا الكتاب

٦	حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ
١٦	صَفِيَّةُ بْنُتُ عَبْدِ الْمَطَّلِبِ
٢٦	فَاطِمَةُ الرَّهْرَاءِ
٣٥	أَسْمَاءُ بْنُتُ أَبِي بَكْرٍ
٤٥	نَسِيَّةُ الْمَازِنِيَّةِ
٥٧	رَمْلَةُ بْنُتُ أَبِي سُفْيَانَ
٦٨	الْعُمَيْصَاءُ بْنُتُ مِلْحَانَ
٧٨	أُمُّ سَلَمَةَ

حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ

أُمُّ الرَّسُولِ إِلَّا عَظِيمٌ مِّنَ الرَّضَاعِ

هذه السَّيِّدة الرَّصان الرَّزان^(١) أُثيرَةٌ لِدِي كُلِّ مُسْلِمٍ ...

عَزِيزَةٌ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ ...

فَمَنْ شَدَّيْهَا الطَّاهِرِينَ رَضْعَ الْغَلامِ السَّعِيدِ مُحَمَّدَ ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ
صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

وَعَلَى صَدْرِهَا الْمَفْعُمُ بِالْمَحْبَةِ غَفَارِيَّاً ...

وَفِي حَجَرِهَا الطَّافِعُ بِالْحَنَانِ درَجِيَّا ...

وَمِنْ فَصَاحَتْهَا وَفَصَاحَةُ قَوْمِهَا بْنِي «سَعْدٍ» نَهْلِيَّا ...

فَكَانَ مِنْ أَبْيَانِ الْأَيْيَنَاءِ^(٢) كَلَامًا ...

وَأَفْصَحَ الْفَصَاحَاءَ نَطْقًا.

إِلَّا السَّيِّدةُ الْجَلِيلَةُ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ أُمُّ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللَّهِ
وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - مِنَ الرَّضَاعِ.

وَلِرَضَاعِ السَّيِّدةِ السَّعْدِيَّةِ لِلْطَّفْلِ الْمَبَارَكِ الَّذِي مَلَأَ الدُّنْيَا بِرَبِّاً
وَمَرْحَمَةً ...

وَأَتَرَعَهَا خَيْرًا وَهَدِيَّا ...

(١) الرَّزان: الرَّصِينَةُ الرَّزِينَةُ.

(٢) إِلَّا يَنْبَيِّنَ: جَمْعُ بَيْنَ، وَهُوَ مَا يَفْصَحُ عَنْ كَلَامِهِ بِأَحْسَنِ التَّبَيِّنِ.

وزانها خلقاً وفضلاً ...

قصةٌ من روائع القصص، حكتها حليمة السَّعديَّة ببيانها المشرق
إلَّا نيق الجذاب ...

وأسلوبها المتألق الرَّشيق الممتع.

فتعالوا نستمع إليها ...

فخبرها عن النَّبِيِّ الْكَرِيم ﷺ من روائع إلَّا خبر.

قالت حليمة السَّعديَّة:

خرجت من منازلنا أنا وزوجي^(١) وابن لنا صغيرٌ نلتمس الرُّضاعاء^(٢)
في مَكَّةَ، وكان معنا نسوةٌ من قومي بني «سعدٍ» قد خرجن مثل ما
خرجت إليه.

وكان ذلك في سنةٍ قاحلةٍ مجذبةٍ^(٣) ...

أييست الزَّرع ...

وأهلقت الضَّرع فلم تبق لنا شيئاً.

وكان معنا دَائِشان عجفاؤان^(١) مستَّان لا ترشحان^(٢) بقطرة من
لبنٍ فركبت أنا وغلامي الصَّغير إحداهما... .

(١) زوجها: هو الحارث بن عبد العزى السَّعدي ويكنى بأبي كبشة، أما ابنتها: فاسمها عبد الله.

(٢) نلتمس الرُّضاعاء: نبحث عن المولدين الجدد.

(٣) مجذبة: لا مطر فيها ولا نبات.

أمّا زوجي فرَكبُ الأُخْرَى، وَكَانَتْ نَاقَتْهُ أَكْبَرُ سِنًا وَأَشَدَّ هُزُولًا.
وَكَنَا – وَاللَّهُ – مَا نَامَ لَحْظَةً فِي لَيْلَنَا كُلَّهُ لَشَدَّةِ بَكَاءِ طَفْلَنَا مِنَ
الجَمْعِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ ثَدِيهِ مَا يَعْنِيهِ...
وَلَمْ يَكُنْ فِي ضَرْعَى نَاقَتْنَا مَا يَغْذِيهِ...
وَلَقَدْ أَبْطَأْنَا بِالرَّكْبِ بِسَبَبِ هُزُولِ أَتَانَا^(٣) وَضَعْفَهَا فَضَجَرَ رَفَاقَنَا
مَنَّا...
وَشَقَّ عَلَيْهِمُ السَّفَرُ بِسَبِيلِنَا.

فَلَمَّا بَلَغَنَا مَكَّةَ وَبَحْثَنَا عَنِ الرُّضْعَاءِ وَقَعْتُ فِي أَمْرٍ لَمْ يَكُنْ
بِالْحَسْبَانِ... ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ تَبْقَ امْرَأَةٌ إِلَّا وَعَرَضَ عَلَيْهَا الْغَلامُ الصَّغِيرُ
مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ...
فَكَنَا نَأْبَاهُ لِأَنَّهُ يَتِيمٌ، وَكَنَا نَقُولُ:

مَا عَسَى أَنْ تَنْفَعَنَا أُمُّ صَبِيٍّ لَا أَبَ لَهُ؟! ...
وَمَا عَسَى أَنْ يَصْنَعَ لَنَا جَدُّهُ؟! ...

ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَمْضِ عَلَيْنَا غَيْرِ يَوْمَيْنِ اثْنَيْنِ حَتَّىٰ ظَفَرَتْ كُلُّ امْرَأَةٍ مَعْنَا
بِواحِدٍ مِنَ الرُّضْعَاءِ... أَمَّا أَنَا فَلَمْ أَظْفَرْ بِأَحَدٍ... فَلَمَّا أَزْمَعْنَا الرَّحِيلَ
قَلْتُ لِزَوْجِي:

(١) العَجْفُ: الْهُزَالُ.

(٢) لَا تَرْشَحَانُ: لَا تَقْطُرُ ضَرْوَعَهَا بِقَطْرَةٍ لِبْنٍ.

(٣) إِلَّاتَانُ: أَنْثَيُ الْحَمَارِ.

إِنِّي لَا كُرِهَ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى مَنَازِلِنَا وَأَلْقَى بْنِي قَوْمِنَا خَاوِيَةَ الْوِفَاضِ^(١)
دُونَ أَنْ آخُذَ رَضِيعًا، فَلَيْسَ فِي صُوِيجَاتِي امْرَأَةٌ إِلَّا وَمَعَهَا رَضِيعٌ.
وَاللَّهُ لَأَذْهَبَنَّ إِلَى ذَلِكَ الْيَتِيمِ، وَلَا حَذَنَّهُ.

فَقَالَ لِي زَوْجِي :

لَا بَأْسَ عَلَيْكَ، خَذِيهِ فَعُسَى أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ حِيرَانًا فَذَهَبَتْ إِلَى أُمِّهِ
وَأَخْدَتْهُ ...

وَوَاللَّهِ مَا حَمَلَنِي عَلَى أَخْذِهِ إِلَّا أَنِّي لَمْ أَجِدْ غَلَامًا سَواهُ.

فَلَمَّا رَجَعَتْ بِهِ إِلَى رَحْلِي وَضَعْتَهُ فِي حَجْرِي، وَأَلْقَمْتَهُ ثَدِيبِي، فَدَرَّ
عَلَيْهِ مِنَ الْلَّبَنِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْرِّ بَعْدَ أَنْ كَانَ خَاوِيَّاً حَالِيًّا ...

فَشَرَبَ الْغَلامُ حَتَّى رَوَى
ثُمَّ شَرَبَ أَحْوَهُ حَتَّى رَوَى أَيْضًا، ثُمَّ نَامَ ...
فَاصْصَحَّعَتْ أَنَا وَزَوْجِي إِلَى جَانِبِهِمَا لِنَنَامٍ بَعْدَ أَنْ كَنَّا لَا نَحْظَى
بِالنَّوْمِ إِلَّا غَرَارًا^(٢) بِسَبَبِ صَبَّيْنَا الصَّغِيرَ.
ثُمَّ حَانَتْ مِنْ زَوْجِي التَّفَاتُهُ إِلَى نَاقِتَنَا الْمُسَنَّةِ الْعَجْفَاءِ ...
فَإِذَا ضَرَعَاهَا حَافِلانِ مُتَلِئَانِ ...
فَقَامَ إِلَيْهَا دَهِشاً، وَهُوَ لَا يَصِدِّقُ عَيْنِيهِ وَحَلَبَ مِنْهَا وَشَرَبَ.

(١) خَاوِيَةَ الْوِفَاضِ: الْوِفَاضُ هُوَ جَلْدَةٌ تُوضَعُ تَحْتَ الرَّحِيْلِ لِتَلْقَى الطَّحِينَ، وَخَالِيَةُ الْوِفَاضِ: كَنَاءَةٌ عَنِ الْحَاجَةِ الشَّدِيدَةِ وَإِلَّا لِاسْتِرْدَامِ.

(٢) غَرَارًا: قَلِيلًا.

ثمَّ حلب لي فشرت معه حَتَّى امتلأنا رِيًّا وشبعاً.
وبتنا في خير ليلةٍ.

فلما أصبحنا قال لي زوجي:
أتدررين يا حليمة أَنَّك قد ظفرت بطفل مبارك؟! .
فقلت له:

إِنَّه لِكُذْلَك وَإِنِّي لَأَرْجُو مِنْهُ خَيْرًا كَثِيرًا.

ثمَّ خرجنا من مَكَّة فركبت أَتانا المسنة ...
وحملته معي عليها؛ فمضت نشيطة تتقدّم دوابَّ القوم جميّعاً حَتَّى
ما يلحق بها أيُّ من دواهُم.

فجعلت صواحي يقلن لي:
ويحك يا ابنة أبي ذؤيب، تمَّهلي علينا ...
أليسَت هذه أَتانا المسنة التي خرجتم عليها؟!! .
فأقول لهنَّ: بلى ... والله إِنَّهَا هي.
فيقلن: والله إِنَّ لها لشأنًا.

ثمَّ قدمنا منازلنا في بلاد بني «سعد»، وما أعلم أرضاً من أرض الله
أشدُّ قحطًا منها ولا أقسى جدًا.
لكنَّ غنمها جعلت تغدو إليها مع كلِّ صباح، فترعى فيها ثمَّ تعود
مع المساء ...

فتحلب منها ما شاء الله أن تحلب، ونشرب من لبنها ما طاب لنا
أن نشرب، وما يحلب أحد غيرنا من غنمته قطرةً.

يجعل بنو قومي يقولون لرعاياهم:

وي لكم ... اسروحوا بعنمكم حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب.
فصاروا يسرحون بأغناهم وراء غنمها؛ غير أئمّهم كانوا يعودون بها
وهي جائعةٌ ما ترشح لهم بقطرةٍ.

ولم نزل نتكلّمُ من الله البركة والخير حتّى انقضت ستة رضاع
الصّبي ...

وتمّ فطامه ...

وكان خلال عاميه هذين ينمو نموًّا لا يشبه نمو أقرانه...
 فهو ما كاد يتم سنتيه عندنا حتّى غداً غلامًا قويًا مكتملاً.

عند ذلك قدمنا به على أمّه، ونحن أحبرص ما نكون على مكثه
عندنا، وبقائه فيها، لما كنّا نرى في بركته، فلما لقيت أمّه طمأنتها عليه
وقلت:

ليتك تتركين بنيّ عندي حتّى يزداد فتوّهٌ وفُوّهٌ ...

فإني أخشى عليه وباء مكّة ...

ولم أزل بها أقنعها وأرغمها حتّى ردّته علينا ...

فرجعنا بها فرحين مستبشرين.

ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَمْضِ عَلَى مَقْدِمِ الْغَلامِ مَعْنَا غَيْرَ أَشْهِرٍ مَعْدُودَاتٍ حَتَّى
وَقَعَ لَهُ أَمْرٌ أَخَافُنَا ... وَأَقْلَقْنَا ...
وَهَذَنَا هَذَّا.

فَلَقِدْ خَرَجَ ذَاتَ صَبَاحٍ مَعَ أَخِيهِ فِي غَنِيمَاتٍ لَنَا يَرْعِيَانَا خَلْفَ
بَيْوَتِنَا؛ فَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيْنَا أَخْوَهُ يَعْدُونَا، وَقَالَ:
الْحَقَا بِأَخِي الْقَرْشِيِّ، فَقَدْ أَخَذَهُ رَجَلَانِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيَضْ
فَأَضْجَعَاهُ ...
وَشَقَّا بَطْنَهُ ...

فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَزَوْجِي نَعْدُو نَحْوَ الْغَلامِ، فَوَجَدْنَاهُ مَنْتَقِعًا عَلَى الْوَجْهِ^(١)
مَرْجِفًا ...

فَالْتَّرَمِمَهُ زَوْجِي ، وَضَمَّمْتُهُ إِلَى صَدْرِي ...
وَقَلَتْ لَهُ: مَالِكٌ يَا بُنْيَ؟!!.

فَقَالَ: جَاءَنِي رَجَلَانِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيَضْ فَأَضْجَعَانِي، وَشَقَّا بَطْنِي،
وَالْتَّمَسَا شَيْئًا فِيهِ، لَا أَدْرِي مَا هُوَ ثُمَّ خَلَّيَانِي، وَمَضِيَّا.
فَرَجَعْنَا بِالْغَلامِ مُضْطَرِّبِينَ خَائِفِينَ.

فَلَمَّا بَلَغْنَا خَبَاءَنَا التَّفَتَ إِلَيَّ زَوْجِي وَعَيْنَاهُ تَدْمَعَانِ، ثُمَّ قَالَ:
إِنِّي لَأَخْشَى أَنْ يَكُونَ هَذَا الْغَلامُ الْمَبَارَكُ قَدْ أَصَبَّ بِأَمْرٍ لَا قَبْلَ لَنَا
بِرْدٌ

(١) انتقع وجهه: أي تغير لونه.

فألحقيه بأهله، فإنهم أقدر منا على ذلك.

فاحتملنا الغلام ومضينا به حتى بلغنا مكة، ودخلنا بيت أمّه،
فلما رأتنا حذقت في وجه ولدها، ثم بادرتني قائلة:
ما أقدمك بمحمد يا حليمة وقد كنتِ حرِيصةً عليه؟! ... شديدة
الرَّغبة في مُكثه عندك!! . فقلت: لقد قوي عوده
وأكتملت فتوتها
وقضيت الذي عليّ نحوه، وتخوفت عليه من الأحداث؛ فأدّيته
إليك

فقالت: أصدقيني الخبر فما أنت بالتي ترغب^(١) عن الصَّبِيِّ لهذا
الذي ذكرته ...

ثم مازالت تلتحّ علىي ولم تدعني حتى أخبرتها بما وقع له، فهدأت ثم
قالت:

وهل تخوفت عليه الشَّيْطان يا حليمة؟.

فقلت: نعم.

فقالت: كلاماً، والله ما للشَّيْطان عليه من سبيل ...

وإنَّ لابني لشأنًا ... فهل أخبرك خبره؟.

فقلت: بلى ...

(١) ترحب عنه: تزهد به ولا تريده.

قالت: رأيت - حين حملت به - أئّه خرج ميّ نورُ أضاءَ لي
قصور «بصري» من أرض الشَّام ...
ثمَّ إني حين ولدته نزل واضعًا يديه على الأرض، رافعًا رأسه إلى
السَّماء ...

ثمَّ قالت: دعيه عنك، وانطلقي راشدةً ...
وجزيت عناً وعنه خيرًا.
فمضيت أنا وزوجي مخزونين أشدَّ الحزن على فراقه ... ولم يكن
غلامنا بأقلَّ ممَّا حزناً عليه، وأسىًّا ولو عَةً على فراقه.

وبعدُ ... فلقد عاشت حليمة السَّعدية حتَّى بلغت من الكبر
عثيًّا^(١) ...

ثمَّ رأت الطَّفل اليتيم الذي أرضَعته، قد غدا للعرب سيدًا ...
وللإنسانية مرشدًا ... وللبشريةنبيًّا ...
ولقد وفدت عليه بعد أن آمنت به وصدقَت بالكتاب الذي أنزل
عليه ...

فما إن رأها حتَّى استطار بها سرورًا، وطفق يقول:
«أمِّي ... أمِّي ...».

(١) عثيًّا: جاوزت حدًّا كبيرًا من العمر.

ثم خلع لها رداءه، وبسطه تحتها، وأكرم وفادتها أبلغ إلأكرام،
وعيون الصحابة تنظر إليه وإليها في غبطة وإجلالٍ ...

صلوات الله وسلامه على محمد البر الوفي ...

صاحب الخلق الكريم ...

ورضوان الله على السيدة حليمة السعدية ...

ظهر^(١) النبي العظيم ﷺ ...

(١) الظاهر: هي المرضعة غير الأم.

(*) للاستزادة من أخبار حليمة السعدية انظر:

١- تاريخ الطبرى: ٢٩٧٠ / ٢ وانظر الفهارس في العاشر.

٢-طبقات الكبرى: ١١٠ / ١، ١٥١ / ٤ و ٥٠ / ٤.

٣-حياة الصحابة: انظر الفهارس في الرابع.

٤- الاستيعاب «على هامش الإصابة»: ٤ / ٢٧٠٠.

٥-السيرة لابن هشام: انظر الفهارس.

٦- الإصابة في تمييز الصحابة: ٤ / ٢٧٤ «الترجمة» ٢٩٩٠٠.

٧-أعلام النساء لكتحالة: ١ / ٢٩٠٠.

٨-صفوة الصفوية: ١ / ٥٧٠.

٩- ابن كثير: ٢ / ٢٧٣٠.

١٠-أسد الغابة: ٧ / ٦٧٠.

١١-دلائل النبوة: ١١١٠.

١٢-المحبر: ١٠، ١٣٠.

صفية بنت عبد المطلب

«صفية أول امرأة مسلمة قتلت مشركاً دفاعاً عن دين الله»

من هذه السيدة الجزلة الرزان^(١) التي كان يحسب لها الرجال
ألف حساب؟ ...

من هذه الصحابيّة الباسلة التي كانت أول امرأة قتلت مشركاً في
الإسلام؟ ...

من هذه المرأة الحازمة التي أنشأت للمسلمين أول فارسٍ سلَّ سيفاً
في سبيل الله؟ ...

إنها صفية بنت عبد المطلب الهاشمية القرشية عمّة رسول الله ﷺ.

اكتفى المجد صفية بنت عبد المطلب من كل جانب:
فأبوها، عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ وزعيم قريش وسيدها
المطاع.

وأمها، هالة بنت وهب أخت آمنة بنت وهب والدة الرسول ﷺ.
وزوجها الأول، الحارث بن حرب أخو أبي سفيان ابن حرب زعيم
بني «أمّيّة»، وقد توفي عنها.

وزوجها الثاني، العوام بن خويلد أخو خديجة بنت خويلد سيدة
نساء العرب في الجاهلية، وأولى أمّهات المؤمنين في الإسلام.

(١) الجزلة: أصلية الرأي، والرzan: الرصينة الرزينة.

وابنها الزبير بن العوام حواريُّ رسول الله ﷺ.

أبعد هذا الشرف شرفٌ تطمح إليه النُّفوس غير شرف الإيمان؟!.

لقد توفي عنها زوجها العوام بن خويلد وترك لها طفلاً صغيراً هو ابنها «الزبير» فنشأته على الخشونة والبأس ...

ورثته على الفروسيَّة وال الحرب ...

وجعلت لعيته في بري السهام وإصلاح القسيٍّ.

ودأبت على أن تقذفه في كل مخوفة^(١) وتُقْحِمُه^(٢) في كل خطيرٍ ...

فإذا رأته أحجم أو تردد ضربته ضرباً مبرحاً، حتى إهلاً عوتبت في

ذلك من قبل أحد أعمامه حيث قال لها:

ما هكذا يُضرب الولد ... إنك تضرينه ضرب مبغضةٍ لا ضرب

أمٌ؛ فارتحرت^(٣) قائلةً:

مَنْ قَالَ أَبْغَضَتُهُ فَقَدْ كَذَبَ

وَإِنَّمَا أَضْرِبُهُ لِكَيْ يَلِبْ^(٤)

وَيَهْزِمُ الْجَيْشَ وَيَأْتِي بِالسَّلَبَ

(١) مخوفة: موقف يخاف منه.

(٢) تُقْحِمُه: تدفعه وتدخله.

(٣) ارتحرت: قالت شعراً على بحر الرجز.

(٤) يلب: يصبح لبياً، واللبيب: الذكي العاقل.

ولما بعث الله نبيه بدين المدى والحق، وأرسله نذيرًا وبشيراً للناس، وأمره بأن يبدأ بذوي قرباه، جمع بنى عبد المطلب ... نساءهم ورجالهم وكبارهم وصغارهم، وخطابهم قائلاً:

(يا فاطمة^(١) بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بنى عبد المطلب إني لا أملك لكم من الله شيئاً).

ثم دعاهم إلى الإيمان بالله، وحضرهم على التصديق برسالته ... فأقبل على النور الإلهي منهم من أقبل، وأعرض عن سنّة^(٢) من أعرض؛ فكانت صفية بنت عبد المطلب في الرّعيل^(٣) الأول من المؤمنين الصادقين ... عند ذلك جمعت صفية الجد من أطرافه: سُوداء الحسب، وعِز الإسلام.

انضمت صفية بنت عبد المطلب إلى موكب النور هي وفتاها الزبير بن العوّام، وعانت ما عاناه المسلمون السّابقون من بأس قريش وعنتها وطغيانها.

فلما أذن الله لنبيه والمؤمنين معه بالهجرة إلى المدينة خلفت السيدة الهاشمية وراءها مكة بكل ما لها فيها من طيوب الذكريات، وضروب المفاحر والآثار ويتّم وجهها شطر المدينة، مهاجرةً إلى الله ورسوله.

(١) انظرها ص ٣٥.

(٢) سنّة: ضياؤه.

(٣) الرّعيل الأول: الفوج الأول.

وعلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ السَّيِّدَةَ الْعَظِيمَةَ كَانَتْ يَوْمَئِذٍ تَخْطُو نَحْوَ السَّيِّدَيْنِ
مِنْ عُمْرِهَا الْمَدِيدِ الْحَافِلِ ...

فَقَدْ كَانَ لَهَا فِي مِيَادِينِ الْجَهَادِ مَوَاقِفَ مَا يَزَالُ يَذَكُرُهَا التَّارِيخُ
بِلِسَانٍ نَدِيٍّ بِالْإِعْجَابِ رَطِيبٍ بِالثَّنَاءِ، وَحَسِبَنَا مِنْ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ
مَشْهُدَانِ اثْنَانِ:

كَانَ أَوْلَمَا يَوْمًا «أَحَدٌ» ...
وَثَانِيَهُمَا يَوْمًا «الْخَنْدَقُ».

أَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا فِي «أَحَدٍ» فَهُوَ أَكْبَرُهَا خَرَجَتْ مَعَ جَنْدِ الْمُسْلِمِينَ
فِي ثَلَّةٍ^(١) مِنَ النِّسَاءِ جَهَادًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

فَجَعَلَتْ تَنْقُلُ الْمَاءَ، وَتَرْوِيُ الْعَطَاشَ، وَتَبْرِي السَّهَامَ، وَتُصْلِحُ
الْقِسْيَ^(٢).

وَكَانَ لَهَا مَعَ ذَلِكَ غَرْضٌ آخَرُ هُوَ أَنْ تَرْقُبَ الْمَعرِكَةَ بِمَشَاعِرِهَا
كُلَّهَا ...

وَلَا غَرُو^(٣) فَقَدْ كَانَ فِي سَاحِتِهَا ابْنُ أَخِيهَا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} ...
وَأَخْوَهَا حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَطَّلِبِ أَسْدُ اللَّهِ ...
وَابْنَهَا الزَّبِيرُ بْنُ الْعَوَامِ حَوَارِيُّ^(٤) نَبِيُّ اللَّهِ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} ...

(١) ثَلَّةُ طَائِفَةٍ.

(٢) الْقِسْيَ: جَمْعُ قَوْسٍ وَهُوَ آلَةُ الْحَرْبِ يَرْمَى بِهَا بِالسَّهَامِ.

(٣) لَا غَرُو: لَا عَجَبٌ.

وفي المعركة - قبل ذلك كله وفوق ذلك كله - مصير الإسلام
الذي اعتنقته راغبةً ...

وهاجرت في سبيله محتسبةً ...

وأبصرت من خلاله طريق الجنة.

ولما رأت المسلمين ينكشفون^(١) عن رسول الله ﷺ إلا قليلاً
منهم ...

ووجدت المشركين يوشكون أن يصلوا إلى النبي ﷺ ويقضوا عليه؛
طرح سقاءها أرضاً ...

وهبّت كاللبوة^(٣) التي هوجم أشباهها وانتزعت من يد أحد
المهزمين رُمحه، ومضت تشقّ به الصُّفوف، وتضرب بسنانه الوجه،
وتزار في المسلمين قائلاً:

ويحكم، اخْزَمْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ؟!! .

فلما رأها النبي ﷺ عليه الصَّلاة والسَّلام مقبلةً خشي عليها أن ترى
أخوها حمزة وهو صريح، وقد مثلّ به المشركون أبشع تمثيل^(٤) فأشار إلى
ابنها الرُّبّير قائلاً:

(١) الحواري: الناصر، وحواريو الرسل: الخاصة من أنصارهم.

(٢) ينكشفون: يتفرقون.

(٣) اللبوة: أشى إلّا سد.

(٤) التمثيل: تشويه جسد الميت.

(المرأة يا زبیر... المرأة يا زبیر...).

فأقبل عليها الرَّبِّير وقال:

يا أمَّه إِلَيْك... إِلَيْك يا أمَّه^(١).

فقالت: تنح لا أم لك.

فقال: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ يَأْمُرُكَ أَنْ تَرْجِعِي ...

فقالت: ولم؟! ...

إِنَّه قد بلغني أنه مثل بأخي، وذلك في الله ...

فقال له الرَّسُول: خل سبيلها يا زبیر.

فخل سبيلها.

ولما وضعت المعركة أوزارها... وقفـت صـفيـة عـلـى أخـيهـا حـمـزة
فـوـجـدـتـهـ قـدـ بـقـرـ^(٢) بـطـنـهـ، وـأـخـرـجـتـ كـبـدـهـ، وـجـدـعـ أـنـفـهـ^(٣)، وـصـلـمـتـ
أـذـنـاهـ^(٤)، وـشـوـهـ وـجـهـهـ، فـاسـتـغـفـرـتـ لـهـ، وـجـعـلـتـ تـقـوـلـ:
إِنَّ ذـلـكـ فـي اللـهـ ...
لـقـدـ رـضـيـتـ بـقـضـاءـ اللـهـ.

وـالـلـهـ لـأـصـبـرـنـ، وـلـأـحـسـبـنـ^(١) إـنـ شـاءـ اللـهـ.

(١) إِلَيْك يا أمَّه: ابتعدـيـ يـاـ أمـاهـ.

(٢) بـقـرـ بـطـنـهـ: شـُقـ بـطـنـهـ.

(٣) جـدـعـ أـنـفـهـ: قـطـعـ أـنـفـهـ.

(٤) صـلـمـتـ أـذـنـاهـ: قـطـعـتـ أـذـنـاهـ.

كان ذلك موقف صفيحة بنت عبد المطلب يوم «أحد»...
أمّا موقفها يوم «الخندق» فله قصّةٌ قصيرةٌ مثيرةٌ سُداها الدهاء
والذكاء، وحُمّتها^(٢) ، البسالةُ والحزن ...
فإليك^(٣) خبرها كما وعته كتب التاريخ.

لقد كان من عادة رسول الله ﷺ إذا عزم على غزوة من الغزوات
أن يضع النساء والذراري في الحصن خشية أن يغدر بالمدينة غادر في
غيبة حماها.

فلما كان يوم «الخندق» جعل نساءه وعمّته وطائفته من نساء
المسلمين في حصن حسان بن ثابت^(٤) ورثه عن آبائه، وكان من أمنع
حصون المدينة مناعةً وأبعدها مبتلاً.

وبينما كان المسلمون يرابطون على حواف^(٥) الخندق في مواجهة
قريش وأحلافها، وقد شغلوا عن النساء والذراري بمنازلة العدو.

(١) لأحسين: لا يجعلن ذلك المصاب في الله ولأطلبن إلآخر عليه منه.

(٢) السُّدِي: الحيوط الطولية للنسيج، واللحمة: الحيوط العرضية.

(٣) إليك خبرها: خذ خبرها.

(٤) حسان بن ثابت: شاعر رسول الله ﷺ والمدافع عن الإسلام بشعره، توفي وله مائة
وعشرون سنة قضى نصفها في الجاهلية ونصفها في الإسلام.

(٥) حواف الخندق: إطاره.

أبصرت صفية بنت عبد المطلب شبعاً يتحرك في عتمة الفجر،
فأرهفت له السمع، وأحدّت إليه البصر ...
فإذا هو يهودي أقبل على الحصن، وجعل يُطيف به متحسّساً
أخباره متحسّساً على من فيه.
فأدركت أنه عين^(١) لبني قومه جاء ليعلم أفي الحصن رجال يدافعون
عمّن فيه، أم إنّه لا يضمُّ بين جدرانه غير النساء والأطفال.
فقالت في نفسها: إنّ يهود بني «قريظة» قد نقضوا ما بينهم وبين
رسول الله من عهدي وظاهروا^(٢) قريشاً وأحلافها على المسلمين ...
وليس بيننا وبينهم أحدٌ من المسلمين يدافع عنّا، ورسول الله ﷺ
ومن معه مرابطون في نحور^(٣) العدو ...

فإن استطاع العدو أن ينقل إلى قومه حقيقة أمرنا سبى اليهود
النساء واسترقوا الذّاري، وكانت الطامة^(٤) على المسلمين.

عند ذلك بادرت إلى خمارها فلقتُه على رأسها، وعمدت إلى ثيابها
вшدّتها على وسطها، وأخذت عموداً على عاتقها^(١)، ونزلت إلى

(١) عين لبني قومه: جاسوس لهم.

(٢) ظاهروا قريشاً: أغاروا قريشاً.

(٣) في نحور العدو: في وجه العدو وقبالته.

(٤) الطامة: المصيبة الكبرى، وسميت القيامة طامة لأنّها تطم كل شيء، أي تعم ولا ترك شيئاً.

باب الحصن فشقّه في أناةٍ وحذقٍ، وجعلت ترقب من خلاله عدوَ الله في يقظةٍ وحذرِ، حتَّى إذا أيقنت أَنَّه غداً في موقفٍ يُمْكِنُها منه ...

حملت عليه حملةً حازمةً صارمةً، وضربته بالعمود على رأسه
فطرحته أرضاً ...

ثمَّ عَزَّزَتِ الضَّرَبةُ الأولى بثانيةٍ وثالثةٍ حتَّى أجهزت عليه، وأحمدت
أنفاسه بين جنبيه ...

ثمَّ بادرت إليه فاحتَّزَتْ رأسه بسُكُنٍ كانت معها، وقدفت بالرَّأس
من أعلى الحصن ...

فطفرق يتدرج على سفوحه حتَّى استقرَ بين أيدي اليهود الذين
كانوا يتربصون^(٢) في أسفله.

فلما رأى اليهود رأس صاحبهم؛ قال بعضهم لبعض:
قد علمنا أنَّ مُحَمَّداً لم يكن ليترك النِّساء وإلَّا طفال من غير
هُمَّاءٍ ... ثمَّ عادوا أدراجهم ...

رضي الله عن صفية بنت عبد المطلب.
فقد كانت مثلاً فدّا للمرأة المسلمة ...
رَبَّتْ وحيدها فأحكمت تربيته ...

(١) علي عاتقها: على كتفها.

(٢) يتربصون: ينتظرون ويترقبون

وأصيّبت بشقيّتها فأحسنت الصّبَر عليه ...

واختبرتها الشّدائِد فوجدت فيها المرأة الحازمة العاقلة الباسلة ...

ثمَّ إنَّ التَّارِيخ كتب في أنصع صفحاته:

إنْ صَفِيَّة بنت عبد المطَّلب كانت أول امرأة قتلت مشرِّكًا في
الإِسْلَام^(*).

(*) للاستزادة من أخبار صَفِيَّة بنت عبد المطَّلب انظر:

١ - الإصابة: ٣٤٨ / ٤ «الترجمة».

٢ - السيرة النبوية لابن هشام: «انظر الفهارس» .

٣ - المستطرف للأبشيهي: «انظر الفهرس» .

٤ - حياة الصحابة: ١٥٤ / ١ «وانظر الفهارس» .

٥ - إلَّاغَاني لأبي الفرج: «انظر الفهارس» .

٦ - ذيل تاريخ الطبرى: «انظر الفهارس» .

٧ - أعلام النساء لـكحالة: ٣٤٦ - ٣٤١ / ٢

٨ - الكامل في التاريخ: «انظر الفهارس» .

٩ - المعارف لابن قتيبة: «انظر الفهارس» .

١٠ - الاستيعاب بـحامش الإصابة: ٣٤٥ / ٤

١١ - أسد الغابة: ١٧٢ / ٧

١٢ - فتوح البلدان للبلاذري.

١٣ - الطبقات الكبرى: ٤١٠ / ٨

١٤ - سير أعلام النبلاء: ١٩٣ / ٢

١٥ - سمط اللآلئ: ١٨٠ / ١

١٦ - ابن كثير: ١٠٨ / ٤ .

فاطمة الزهراء

ريحانة رسول الله ﷺ

«المهدي من عترتي من ولد فاطمة»

[محمد رسول الله]

قصة حياة فاطمة الزهراء فصلٌ مشرقٌ من سيرة الرسول

العظيم ﷺ ...

وصورة رائعة من صور حياة بيت النبوة الكريم ...

ومثل رائع لما كان عليه الصحابة الكرام.

ولدت فاطمة الزهراء رضوان الله عليها سنة بناء الكعبة قبلبعثة

الحمدية بخمس سنين.

أما أمها فسيدة رزان جمعت العقل الحصيف^(١) إلى النسب

الشريف وضمت إلى ذلك الخلائق الفاضلة، والثروة الطائلة؛ فكانت

تدعى في الجاهلية بالطاهرة، وتنعمت بسيدة نساء قريش ...

آمنت بالرسول ﷺ إذ كفر به الناس، وصدقته إذ كذبه الناس،

وواسته بماها إذ حرمه الناس.

وقد حبا الله هذه السيدة الوقور صباحة الوجه مع ما حبها به من

الخلق الجميل، والحسب إلاثيل^(١) والمآل الجزيل ...

(١) الحصافة: الحكمة في العقل، والجودة في الرأي.

هذه هي أمُّ فاطمة الزَّهراء ...

أمًا أبوها فسيد المرسلين، وخاتم النَّبِيِّين، وإمام المُتَّقِين ...

فأعظم بهذا النسب الْكَرِيم نسبياً ...

وهذا إلَّا بِالْعَظِيم أَبَا.

كانت فاطمة الزَّهراء آخر أولاد أبيها، وآخر إلَّا ولاد يتقلب في
أعطااف الحنان والحدب ...

ويدرج في أكناف الحفاوة والحب ...

لذا كانت فاطمة ريحانة رسول الله صلوات الله عليه... يرضى إذا
رضيت ويسخط إذا سخطت.

ولكنَّ حنان إلَّا بُوين لم يحل دون تعهُّد المحبوبة إلَّا ثِيرَة بالتربيَة
وإعدادها لتحمل المسؤوليات ...

فقد روَى أَنَّها كانت تقوم وحدها بصناعة بيتها لا يعينها في أكثر
أيامها أحدُ، وأنَّها كانت تضمُّد جراح أبيها صلوات الله عليه في غزوة
«أَحد».

ولمَّا بلغت الزَّهراء مبلغ النِّسَاء طمحت إليها إلَّا نظار؛ فكان في
جملة من خطبها أبو بكر وعمر ...

(١) الحسب الأثيل: الأصيل القديم.

فرَّهُمَا الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ رَدًّا كَرِيعًا، وَكَائِنًا كَانَ يُرِيدُ أَنْ يُخَصِّ
بَهَا عَلَيًّا رَضِوانُ اللَّهِ عَلَيْهِ.

* * *

وَفِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ لِلْهِجَرَةِ خَطَبَ عَلَيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءَ فَمَا أَسْرَعَ أَنْ اسْتَجَابَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى طَلَبِهِ، فَخَرَّ عَلَيُّ سَاجِدًا شَكِيرًا اللَّهُ، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنْ سُجُودِهِ قَالَ لَهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامُ:

(بارك الله لكم وأعлиكم، وأسعد جدّكم^(١) وأخرج منكم الكثير الطيب).

وقد شهد عقد فاطمة الزَّهراء على عليٍّ بن أبي طالب أبو بكر،
وعمر، وعثمان، وطلحة^(٢)، والرُّزير من المهاجرين، وعدٌ يماشل
عددهم من إلَّانصار.

وَلَا أَنْذِهُ الْقَوْمَ مِنْ حَسْبِهِمْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

(الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَ جَعْلَ المصاہرَةَ نَسِيًّا لَاحِقًا، وَأَمْرًا مُفْتَرِضًا وَحَكْمًا عَادِلًا، وَخَيْرًا جَامِعًا، أَوْشَجَ^(٣) بَهَا إِلَارْحَامَ وَأَلْزَمَهَا إِلَانَاتَمَ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَ :

(١) أَسْعَد جَدُّكُمَا: أَسْعَد حَظَّكُمَا، وَجَعَلَكُمَا مِنَ الْمُرْضِيِّ عَنْهُمْ.

(٢) عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله التميمي: انظرهما في كتاب «صور من حياة الصحابة» للمؤلف، الناشر دار الأدب الإسلامي، الطبعة المشروعة.

(٣) أُوشِّجُ بِهَا الْأَرْحَامُ: وَصَلَ بِهَا الْأَرْحَامُ.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ﴾

رَبِّكَ قَدِيرًا ﴿١﴾.

أشهدكم أني زوجت فاطمة من علي على أربع مائة مثقال فضة
إن رضي بذلك على السنّة القائمة، والفرضية الواجبة ...
فجمع الله شملهما، وبارك لهما، وأطاب نسلهما ...
أقول قولي هذا وأستغفر لله العظيم).
وزفت سيدة نساء المسلمين إلى بيت زوجها.

وما كان لها من جهازٍ غير سريرٍ مشروطٍ، ووسادةٍ من أدمٍ
حشوها ليفٌ، ونورةٌ^(٢) من أدمٍ، وسقاءٍ، ومنخلٍ، ومنشفةٍ، وقدحٍ
ورحوان وجرّتان.

لم يطق الرّسول الكريم ﷺ صبراً على بعد الزّهراء عنه؛ فعزم على
أن يحوّلها إلى جواره وكانت تجاوره منازل حارثة بن النعمان فجاء إلى
النبي صلوات الله عليه وقال:
إنه بلغني أنك تريد أن تحول فاطمة إليك، وهذه منازلي وهي أقرب
بيوت «بني النّحّار» إليك، وإنما أنا وما لي الله ورسوله، والله يا رسول
الله:

(١) سورة الفرقان: آية ٤٥.

(٢) نورة من ادم: أي إناء من الجلد يغسل فيه.

للمال الذي تأخذ مني أحب إلى من الذي تدع.

فقال رسول الله ﷺ:

(صدقت، بارك الله عليك).

ثم حَوَّل فاطمة إلى جواره وأسكنها منزلًا من بيوت حارثة رضوان
الله عليه.

ومنذ استقرت الزهراء في جوار أبيها كان يلم بيتها كل صباح،
إذا أُذْن للصبح كان يأخذ بعضاً من باب بيتها ويقول:
(السلام عليكم أهل البيت ويطهرونكم تطهيرًا).

وكان النبي ﷺ إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلّى فيه ركعتين ثم
يشّي بيت فاطمة ويطيل عندها المكث، ثم يأتي بيوت نسائه.

وقد رُوي عن محمد بن قيس أنَّ الرَّسول صلوات الله عليه خرج ذات مرة في سفرٍ ومعه عليٌّ بن أبي طالب فصنعت له فاطمة رضوان الله عليها في غيتهما سوارين وقلادةً وقرطين، ووضعت على باب البيت ستاراً، وذلك لقديم أبيها وزوجها.

فلما قدم رسول الله ﷺ دخل عليها ووقف أصحابه على الباب لا يدرؤن أيقون أم ينصرفون لطول مكثه عندها، فخرج الرَّسول ﷺ وقد عرف في وجهه الغضب حتى جلس على المنبر.

عند ذلك أدركت فاطمة رضوان الله عليها أنه فعل ذلك لما رأى
من السوارين والقلادة والقرطين والسّتر ...

فنزلت قرطيها وقلادتها وسواريها وأنزلت السّتر وبعثت به إلى
رسول الله ﷺ ، وقالت لمن حملته إليها:
قل للرسول تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول لك أجعل هذا في
سييل الله، فلما أتاه قال:

(قد فعلت - فداتها أبوها - ليست الدنيا من محمد ولا من آل
محمد، ول كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما
سقى كافراً منها شربة ماء).

ثم إنَّ بيت فاطمة الزهراء ما لبث أن سعد بالذرية الصالحة
فقد رُزق إلَّا بوان الكريمان كلاً من الحسن، والحسين، ومحسن
وزينب، وأم كلثوم.

كانت فرحة الرسول الكريم ﷺ بهم كبيرة، فقد رُوي أنه لما ولد
الحسن سمَّاه والداه «حرِّا» فجاء رسول الله ﷺ فقال:
(أروني ابني، ما سمَّيتموه؟).
قالوا: حرِّا ...

قال: (بل هو حسن).

وكان الرَّسُول صلوات الله عليه يدَلِّل أَوْلَادَ فاطمة ويستأنسُهُمْ ويداعبُهُمْ ويرقِّصُهُمْ، ورِمَا رَكِبَ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ عَلَى كَتْفِهِ وَهُوَ يَصْلِي ...

فَيَتَأَنَّ في صَلَاتِهِ وَيَطِيلُ سُجُودَهُ لَكِي لا يُزْحِزَهُ عَنْ مَرْكِبِهِ.
وَقَدْ كَانَ مِنْ عَادَتِهِ صَلَواتُ اللهِ عَلَيْهِ أَنْ يَبِيتَ فِي بَيْتِ فاطِمَةَ حِينَأَ

بَعْدِ حِينٍ، وَيَتَوَلِّ خَدْمَةَ أَطْفَالِهِ بِنَفْسِهِ وَأَبْوَاهِمْ قَاعِدَانِ.

فِي إِحْدَى اللَّيَالِي سَمِعَ الْحَسْنَ يَسْتَسْقِي^(١)؛ فَقَامَ صَلَواتُ اللهِ عَلَيْهِ إِلَى قَرْبِهِ فَجَعَلَ يَعْصِرُهَا فِي الْقَدْحِ فَمَدَّ الْحُسَينَ يَدَهُ لِيَتَناولُ الْمَاءَ، فَنَحَّاهُ عَنْهُ وَبَدَأَ بِالْحَسْنِ، فَقَالَتْ فاطِمَةُ:

كَائِنَّهُ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟.

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (إِنَّمَا استَسْقَى أَوْلًَا).

* * * *

وَكَانَتْ فاطِمَةُ رَضْوَانَ اللهِ عَلَيْهَا إِذَا دَخَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَوةً أَخْذَ بِيَدِهِ وَرَحَّبَ بِهَا وَأَجْلَسَهَا فِي مَجْلِسِهِ ...
وَكَانَ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا قَامَتْ لَهُ وَرَحَّبَتْ بِهِ وَأَخْذَتْ بِيَدِهِ فَقَبَّلَتْهَا.
فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ فِي مَرْضِهِ الَّذِي تَوَفَّ فِيهِ فَأَسْرَرَ إِلَيْهَا فَبَكَتْ ... ثُمَّ أَسْرَرَ إِلَيْهَا فَضَحَّكَتْ، وَكَانَتْ عَائِشَةَ تَرَى ذَلِكَ فَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا:

(١) يَسْتَسْقِي: يَطْلَبُ السَّقِيرَ.

كنت أحسب لهذه المرأة فضلاً على النساء فإذا هي واحدة منها بينما هي تبكي إذا هي تضحك.

فلما توفي رسول الله ﷺ سألتها عن ذلك فقالت:

أسر إلى فأخبرني أنه ميت فبكيني ...

ثم أسر إلى أي أول أهل بيته لحوقا به فضحكت.

ولم تمكث فاطمة بعد وفاة أبيها عليه الصلاة والسلام طويلا فلحقت به بعد أشهر قليلة، قيل إنها سرت أو ثلاثة أواثنان على اختلاف في الروايات.

ففي رمضان سنة إحدى عشرة للهجرة لبَّتْ فاطمة الزهراء نداء ربها، وفرحت باللحوق بأبيها.

ولما حضرتها الوفاة تولَّتْ أمر غسل نفسها بيدها وقالت لصاحبتها أسماء بنت عميس - بعد أن اغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل -:

يا أمَّه إيتيني بشبابي الجدد، فلبستها ...

ثم قالـتـ :

قد اغتسلت فلا يكشفن لي أحد كفنا ...

ثم تبسمت، ولم تُرْ مبتسمةً بعد وفاة أبيها إلاّ ساعة فارقت الحياة.

رحم الله ريحانة رسول الله ﷺ رحمةً واسعةً فقد رُفِّت إلى عليٍّ في رمضان ...

وزُفَّتْ إِلَى الْجَنَّةِ فِي رَمَضَانَ أَيْضًا^(*).

(*) للاستزادة من أخبار فاطمة الزهراء انظر:

- ١ - سير أعلام النبلاء: ١١٨/٢
- ٢ - السيرة النبوية لابن هشام: «انظر الفهارس» .
- ٣ - تاريخ الطبرى: «انظر الفهارس في العاشر» .
- ٤ - حياة الصحابة: «انظر الفهارس في الرابع» .
- ٥ - الإصابة: ٣٧٧/٤ «الترجمة» . ٨٣٠
- ٦ - أعلام النساء لـكحالة: ٤٠٨/١
- ٧ - الطبقات لابن سعد: ٨/٥٢
- ٨ - تحذيب التهذيب: ١٢/٤٤٠
- ٩ - الترغيب والترهيب: ٣/٢٦٢
- ١٠ - مستند أحمد: ٢/٤٩٠
- ١١ - صفة الصفوة: ٢/٩٠
- ١٢ - أسد الغاية: ٧/٢٢٠
- ١٣ - حلية الأولياء: ١/٦٩٠
- ٤ - الاستيعاب «بجامش الصحابة» : ٤/٣٧٣

أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ
 ذَاتُ النَّطَافَيْنِ
 «عُمِّرَتْ أَسْمَاءُ مِائَةً عَامٍ وَلَمْ يَسْقُطْ لَهَا سِنٌّ وَلَا ضِرْسٌ، وَلَمْ
 يَغِبْ مِنْ عَقْلِهَا شَيْءٌ»
 [المؤرخون]

صحابيتنا هذه جمعت الجد من أطرافه كُلُّها ...
 فأبوها صاحبٌ، وجدها صاحبٌ، وأختها صاحبةٌ، وزوجها
 صاحبٌ، وابنها صاحبٌ ...
 وحسبُها^(١) بذلك شرفاً وفخرًا ...
 أما أبوها فالصديق خليل الرَّسُول الْكَرِيم ﷺ في حياته، وخليفة من
 بعد مماته ...

وأما جدُّها فأبُو عتيقٍ والدُّ أبِي بَكْرٍ ...
 وأمَّا أختها فأمُّ المؤمنين عائشة الطَّاهِرَة المبرأة ...
 وأمَّا زوجها فحواري^(٢) رسول الله ﷺ الزُّبَيرُ بْنُ العَوَام ...
 وأمَّا ابنتها فعبد الله بن الزُّبَير رضي الله عنه وعنهم أجمعين ...
 إِحْمَانٌ - بِإِحْمَانٍ - أسماء بنت أبي بكر الصديق ... وكفى ...

(١) حسبها: يكفيها.

(٢) الحواري: النصير، وحواريو الرُّسُل: خاصَّةً أنصارهم.

كانت أسماء من السابقات إلى الإسلام، إذ لم يقدم عليها في هذا الفضل العظيم غير سبعة عشر إنساناً من رجلٍ أو امرأةٍ.

وقد لقيت بذات النطاقين لأنّها صنعت للرسول صلوات الله عليه ولأبيها يوم هاجرا إلى المدينة زاداً، وأعدت لهما سقاء^(١) فلما لم تجد ما تربطهما به شققت نطاقيها^(٢) شققين، فريطرت بأحددهما المزود^(٣) وبالثاني السقاء ...

فدعاهما النبي عليه الصلاة والسلام أن يدخلها الله منهما نطاقين في الجنة ...

فلقبت لذلك بذات النطاقين.

تروج بها الرُّبير بن العوام، وكان شاباً مرملاً^(٤) ليس له خادمٌ ينهض بخدمته، أو مالٌ يوسع به على عياله غير فرس اقتناها.

فكان له نعم الزوجة الصالحة، تخدمه وتسوس فرسه وترعايه وتطحن النوى لعلفه، حتى فتح الله عليه فغدا من أغنى أغنياء الصحابة.

(١) السقاء: القربة وغيرها مما يوضع فيه الماء.

(٢) النطاق: ما تشد به المرأة وسطتها.

(٣) المزود: كيسٌ يوضع فيه الزاد للمسافر.

(٤) مرملاً: فقيراً.

ولما أتيح لها أن تهاجر إلى المدينة فراراً بدينها إلى الله ورسوله كانت قد أتّمت حملها بابنها عبد الله بن الرُّبَير فلم يمنعها ذلك من تحمل مشاق الرِّحلة الطَّويلة، فما إن بلغت «قباء»^(١) حتى وضعت ولیدها ...

فكم المُسلمون وهلّوا، لأنَّه كان أول مولود يولد للمهاجرين في المدينة.

فحملته إلى رسول الله ﷺ ووضعه في حجره، فأخذ شيئاً من ريقه وجعله في فم الصَّبِيِّ، ثمَّ حنَّكه^(٢) ودعا له ... فكان أول ما دخل في جوفه ريق رسول الله ﷺ.

وقد اجتمع لأسماء بنت أبي بكرٍ من خصائص الخير وشمائل النُّبل، ورجاحة العقل ما لم يجتمع إلا للقليل النادر من الرجال. فقد كانت من الجود بحيث يضرب بجودها المثل.

حدَّث ابنها عبد الله قال:

ما رأيت امرأتين قط أجود من خالي عائشة وأمي أسماء، لكنَّ جودهما مختلفٌ ...

أمَا خالي فكانت تجمع الشَّيءَ إلى الشَّيءِ حتَّى إذا اجتمع عندها ما يكفي؛ قسمته بين ذوي الحاجات

(١) قباء: قرية على بعد ميلين من المدينة.

(٢) حنَّكه: مضغ شيئاً ووضعه في حنكه.

وأَمَّا أُمِّي فَكَانَتْ لَا تَمْسِكَ^(١) شَيْئًا إِلَى الْغَدِ ...
وَكَانَتْ أَسْمَاءَ إِلَى ذَلِكَ عَاقِلَةً تَحْسِنُ التَّصْرِيفَ فِي الْمَوَاقِفِ
الْخَرْجَةِ ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا خَرَجَ الصَّدِيقُ مَهَاجِرًا بِصَحَّبَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَمَلَ
مَعَهُ مَالَهُ كُلَّهُ، وَمَقْدَارَهُ سَتَّةَ آلَافِ درَهْمٍ، وَلَمْ يَتَرَكْ لِعِيَالِهِ شَيْئًا ...
فَلَمَّا عَلِمَ وَالدُّهُ أَبُو قَحَافَةَ بِرْ حِيلَهُ - وَكَانَ مَا يَزَالُ مُشَرِّكًا - جَاءَ
إِلَى بَيْتِهِ وَقَالَ لِأَسْمَاءَ:

وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَاكُمْ فَجَعَكُمْ بِمَا لَهُ بَعْدُ أَنْ فَجَعْتُمْ بِنَفْسِهِ ...
فَقَالَتْ لَهُ: كَلَّا يَا أُبْتَ إِنَّهُ قَدْ تَرَكَ لَنَا مَالًا كَثِيرًا.
ثُمَّ أَخْذَتْ حَصِّي وَوْضُعْتُهُ فِي الْكَوَّةِ^(٢)، الَّتِي كَانُوا يَضْعُونَ فِيهَا
الْمَالَ، وَأَلْقَتْ عَلَيْهِ ثُوبًا، ثُمَّ أَخْذَتْ بِيَدِهِ جَدَّهَا - وَكَانَ مَكْفُوفَ
الْبَصَرِ - وَقَالَتْ:

يَا أُبْتَ، انْظِرْ كُمْ تَرَكَ لَنَا مِنَ الْمَالِ.
فَوْضَعَ يَدُهُ عَلَيْهِ وَقَالَ:
لَا بَأْسُ ... إِذَا تَرَكْ لَكُمْ هَذَا كُلَّهُ فَقَدْ أَحْسَنْ.
وَقَدْ أَرَادَتْ بِذَلِكَ أَنْ تَسْكُنَ نَفْسَ الشَّيْخِ، وَأَلَّا تَجْعَلَهُ يَبْذِلُ^(١) لَهَا
شَيْئًا مِنْ مَالِهِ ...

(١) لَا تَمْسِكَ شَيْئًا: لَا تَسْتَقِي شَيْئًا.

(٢) الْكَوَّةُ: تَحْوِيفُ فِي الْحَائِطِ، أَوْ نَافِذَةٌ صَغِيرَةٌ.

ذلك لأنها كانت تكره أن يجعل لمشركٍ عليها يدًا^(٢) حتى لو كان جدّها ...

وإذا نسي التاريخ لأسماء بنت أبي بكرٍ مواقفها كلّها، فإنَّه لن ينسى لها رحاحة عقلها، وشدَّة حزمها، وقوَّة إيمانها وهي تلقى والدها عبد الله اللّقاء الأخير.

وذلك لأنَّ ابنتها عبد الله بن الزُّبير بويع له بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية، ودانت له الحجاز، ومصر، والعراق، وخراسان، وأكثر بلاد الشَّام.

لكنَّ بني «أمِيَّة» ما لبثوا أن سيرروا لحربه جيشاً لجباً^(٣) بقيادة «الحجاج بن يوسف الثقفي» ...

فدارت بين الفريقين معارك طاحنة أظهر فيها ابن الزُّبير من ضروب البطولة ما يليق بفارس كميٌّ^(٤) مثله.

غير أنَّ أنصاره جعلوا ينفضُّون^(٥) عنه شيئاً فشيئاً؛ فلحاً إلى بيت الله الحرام، واحتُمِي هو ومن معه في حمى الكعبة العظيمة ...

(١) يبذل لها: يعطيها.

(٢) اليد: الصناعة والمنة والمعروف.

(٣) جيشاً لجباً: جيشاً كثيفاً جراراً.

(٤) الكمي: البطل الشجاع.

(٥) ينفضُّون عنه: يتفرقون عنه.

وَقَبْلِ مُصْرِعِهِ بساعاتٍ دَخَلَ عَلَى أُمّهُ أَسْمَاءَ - وَكَانَتْ عَجَوْزًا فَانِيًّا قدْ كَفَّ بَصِرَهَا - فَقَالَ:

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أُمَّهَ^(١) وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

فَقَالَتْ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ يَا عَبْدَ اللَّهِ ...

مَا الَّذِي أَقْدَمْتَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ، وَالصَّخْرَاتِ الَّتِي تَقْذِفُهَا مِنْ جَنِيَّاتٍ^(٢) الْحَجَاجُ عَلَى جَنودِكَ فِي الْحَرَمِ كَثُرُ دُورُ مَكَّةَ هَذِهِ؟! .

قَالَ: جَئْتُ لِأَسْتَشِيرُكَ.

قَالَتْ: تَسْتَشِيرُنِي!! ... فِي مَاذَا؟!

قَالَ: لَقَدْ خَذَلْنِي النَّاسُ وَنَحَازَوْا عَنِّي رَهْبَةً مِنْ الْحَجَاجِ أَوْ رَغْبَةً بِمَا عِنْدِهِ ...

حَتَّىٰ أَوْلَادِي وَأَهْلِي انْفَضُوا^(٣) عَنِّي، وَلَمْ يَقِنْ مَعِي إِلَّا نَفْرَ قَلِيلٌ مِنْ رِجَالِي، وَهُمْ مِمَّا عَظِيمَ جَلْدُهُمْ^(٤) فَلَنْ يَصْبِرُوا إِلَّا سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ ...

وَرَسُولُ بَنِي «أُمَّيَّة» يَفَوِّضُونِي عَلَى أَنْ يَعْطُونِي مَا شَاءَ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا أُلْقِيَتِ السِّلَاحُ وَبَاعِتْ عَبْدُ الْمُلْكَ ابْنَ مَرْوَانَ، فَمَا تَرَيْنَ؟.

(١) يَا أُمَّهَ: يَا أُمَّاَهَ.

(٢) الْمَنْجِيَّاتُ: جَمْعُ الْمَنْجِيَّقَ، وَهُوَ آلَةٌ حَرِيَّةٌ كَانَتْ تَقْذِفُ بِهَا الصَّخْرَاتِ وَنَحْوَهَا عَلَى الْمَعَاقِلِ وَالْحَصُونَ.

(٣) انْفَضُوا: تَفَرَّقُوا.

(٤) جَلْدُهُمْ: صَبَرُهُمْ وَاحْتَمَالُهُمْ.

فعلا صوتها وقالت:

الشأن شأنك يا عبد الله، وأنت أعلم بنفسك ...
 فإن كنت تعتقد أنك على حقٍّ، وتدعوا إلى حقٍّ، فااصر وحالد
 كما صبر أصحابك الذين قتلوا تحت رايتك...
 وإن كنت إنما أردت الدنيا فلبس العبد أنت ...
 أهلكت نفسك، وأهلكت رجالك.
 قال: ولكنني مقتول اليوم لا محالة.

قالت: ذلك خيرٌ لك من أن تسلم نفسك للحجاج مختاراً، فيلعب
 برأرك غلمانبني «أمّة».
 قال:

لست أخشى القتل، وإنما أخاف أن يمثلوا بي.
 قالت: ليس بعد القتل ما يخافه المرء، فالشّاة المذبوحة لا يؤلمها
 السّلخ ...

فأشرقت أسارير^(١) وجهه وقال:
 بوركت من أمّ، وبوركت مناقبك^(٢) الجليلة؛ فأنا ما جئت إليك في
 هذه الساعة إلا لأسمع منك ما سمعت، والله يعلم أنّي ما وهنت ولا
 ضعفت، وهو الشّهيد علىّ أنّي ما قمت بما قمت به حبّاً بالدنيا
 وزينتها، وإنما غضباً لله أن تستباح محارمه ...

(١) أسارير وجهه: محسن وجهه.

(٢) مناقبك: خاللك وخصالك وشمائلك.

وهأنذا ماض إلى ما تحيّن، فإذا أنا قتلت فلا تحزني عليّ وسلمي
أمرك الله ...

قالت: إنما أحزن عليك لو قتلت في باطل.

قال: كوني على ثقة بآبائك لم يتعمّد إثبات منكرٍ قطُّ، ولا عمل
بفاحشةٍ قطُّ، ولم يجر في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمّد ظلم
مسلمٍ ولا معاهدٍ^(١)، ولم يكن شيء عنده آثر^(٢) من رضي الله عز
وجلَّ ...

لا أقول ذلك تزكيَّ لنفسي، فالله أعلم متي بي، وإنما قلته لأدخل
العزاء^(٣) علي قلبك.

فقالت: الحمد لله الذي جعلك على ما يحبُّ وأحبُّ ...
اقرب ميًّا يا بنِي لأشمم رائحتك وأمس جسدك فقد يكون هذا
آخر العهد بك.

فأكبَّ عبد الله على يديها ورجليها يوسعهما^(٤) لثماً، وأجالت
هي أنفها في رأسه ووجهه وعنقه تتشمَّمُه وتُثْبِلُه ...
وأطلقت يديها تتلمَّس جسده، ثمَّ ما لبست أن ردَّحها عنه وهي
تقول:

(١) المعاهد: الذميُّ.

(٢) آثر: أفضل.

(٣) العزاء: الصَّير.

(٤) يوسعهما لثماً: يملؤهما تقبيلاً.

ما هذا الذي تلبسه يا عبد الله؟! .

قال: درعي.

قالت: ما هذا يا بني لباس من يزيد الشهادة.

قال: إنما ليستها لأطيب خاطرك، وأسكن قلبك.

قالت:

انزعها عنك، فذلك أشدّ لحميتك^(١) وأقوى لوثتك، وأخفّ
لحركتك ...

ولكن البس بدلاً منها سراويل مضاعفة^(٢)، حتى إذا صرعت لم
تنكشف عورتك.

نزع عبد الله بن الزبير درعه، وشدّ عليه سراويله، ومضى إلى الحرم
لمواصلة القتال وهو يقول:

لا تفتر عن الدُّعاء لي يا أمّه.

فرفعت كفيها إلى السماء وهي تقول:

اللَّهُمَّ ارحم طول قيامه وشدة نحيبه في سواد الليل والناس نيامٌ ...

اللَّهُمَّ ارحم جوعه وظماء في هواجر المدينة ومكة وهو صائمٌ ...

اللَّهُمَّ ارحم بردّ بأبيه وأمّه ...

(١) أشدّ لحميتك: أقوى لثivotك وشجاعتك.

(٢) مضاعفة: طويلة.

اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ سَلَّمْتُ لِأَمْرِكَ، وَرَضِيتُ بِمَا قَضَيْتَ لِهِ، فَأَثْبِنِي عَلَيْهِ
ثواب الصَّابِرِينَ ...

لَمْ تَغْرِبْ شَمْسُ ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَّا كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيرَ قَدْ لَحِقَ بِجُوَارِ
رِبِّهِ.

وَلَمْ يَمْضِ عَلَى مَصْرُعِهِ غَيْرَ بَضْعَةِ عَشَرِ يَوْمًا إِلَّا كَانَتْ أَمْهَأَ أَسْمَاءَ
بَنْتِ أَبِي بَكْرٍ قَدْ لَحِقَتْ بِهِ ...

وَقَدْ بَلَغَتْ مِنَ الْعُمُرِ مائَةَ عَامٍ، وَلَمْ يَسْقُطْ لَهَا سُنٌّ وَلَا ضَرِسٌ وَلَمْ
يَغْبُ مِنْ عَقْلِهَا شَيْءٌ^(*).

(*) للاستزادة من أخبار أسماء بنت أبي بكر انظر:

١ - الأصابة: ٤/٢٢٩ «الترجمة».

٢ - أسد الغابة: ٢/٣٩٢-٣٩٣.

٣ - الاستيعاب «على هامش الإصابة»: ٤/٢٣٢٠.

٤ - تحذيب التهذيب: ١٢/٣٩٧.

٥ - صفة الصفوة: ٢/٣١-٣٢.

٦ - شذرات الذهب: ١/٨٠.

٧ - تاريخ الإسلام للذهبي: ٣٣١-١٣٧٠.

٨ - البداية والنهاية: ٨/٣٤٦.

٩ - أعلام النساء لـ كحاله: ١/٣٦.

١٠ - عبد الله بن الزبير من سلسلة أعلام العرب للدكتور الخريوطلي.

١١ - سير أعلام النبلاء: ٢/٨٠.

١٢ - قلائد الجمان: ٣٤٩.

١٣ - النجوم الظاهرة: ١/١٨٩.

نَسِيَّبَةُ الْمَازِنَيَّةُ

«مَا التَّفَتْ يَوْمَ أَخْدِ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا إِلَّا وَرَأَيْتُ أُمَّ عُمَارَةَ تُقَاتِلُ

دُونِي»

[مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ]

«أَنْتُمْ عَلَى مَوْعِدٍ مَعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ الْعَقبَةِ فِي آخِرِ الْمَزِيزِ^(١)
الْأَوَّلِ مِنَ الظَّلَلِ».

أَسْرَرَ مَصْعُبُ بْنُ عَمِيرٍ بِهَذِهِ الْكَلْمَةِ إِلَى وَاحِدٍ مِنْ مُسْلِمِي
«يَثْرَب»، فَسَرَى الْخَبْرُ بَيْنَهُمْ سَرِيَانَ النَّسِيمِ فِي سَرْعَةٍ، وَخَفْقَةٍ، وَهَدْوَةٍ.
وَأَحْيَطَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ تَسَلَّلُوا مِنَ الْمَدِينَةِ، وَاندَّسُوا بَيْنَ جَمْعِ
حَجَّاجِ الْمُشَرَّكِينَ الْوَافِدِينَ عَلَى مَكَّةَ مِنْ كُلِّ صُوبٍ.

وَأَقْبَلَ الظَّلَلُ فَاسْتَسْلَمَ حَجَّاجُ الْمُشَرَّكِينَ إِلَى الْكَرْبَلَاءِ^(٢) ...

وَجَعَلُوا يُعْطُونَ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ بَعْدِ يَوْمٍ جَاهِدٍ نَاصِبٍ^(٣) قُضِيَّوْهُ فِي
الْتَّطَوُّفِ حَوْلَ الْأَوْثَانِ ...

وَالذَّبْحُ لِلأَصْنَامِ ...

١ - المُبِيرُ: ١٠٠، ٥٤، ٢٢ .

(١) الْمَزِيزُ الْأَوَّلُ مِنَ الظَّلَلِ: الْثَّلَاثُ إِلَّا أَوْلُ مِنْهُ.

(٢) الْكَرْبَلَاءُ: النَّوْمُ.

(٣) جَاهِدٌ نَاصِبٌ: مَتَعَبٌ بِسَبِيلٍ مَا بَذَلَ فِيهِ مِنْ جَهْدٍ.

لكنَّ أصحاب مصعب بن عميرٍ من مسلمي «يُثرب» لم يغمض لهم جفنٌ ...
وكيف لجفونهم أن تغمض؟!.

وقلوبهم تخفق بين فرحة باللقاء الذي قطعوا من أجله الفيافي^(١)
والقفار^(٢) وأفشلوكم تقاد طير من بين ضلوعهم شوقاً لرؤيه نبيهم
الحبيب صلوات الله وسلامه عليه.

فقد آمن به أكثرهم قبل أن يسعدهوا بلقياه ...
وتعلّقوا به قبل أن تكتحل أعينهم بمرآه ...

وفي آخر المزيع الأوّل من أوسط أيام التّشريق، وعند «العقبة»
في «منى» تمَّ اللّقاء الكبير في نجوة^(٣) من قريشٍ ...
فلما تقدَّم اثنان وسبعون رجلاً من النّبِيِّ صلوات الله وسلامه
عليه ...

ووضعوا أيديهم في يديه واحداً بعد آخر مبايعين على أن يمنعوه مما
يمنعون منه نسائهم وأولادهم ...
ولمَا انتهى الرجال من البيعة تقدَّمت امرأتان فبأيّتنا على ما بايع
عليه الرجال ...

(١) الفيافي: الصحاري الواسعة.

(٢) القفار: إلأراضي الجراء.

(٣) النجوة: البعد عن إلأمر حتى يظن أنه لن يلحقه أحد.

ولكن من غير مصافحةٍ ...

ذلك لأن الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام لا يصافح النِّساء.

وقد كانت إحدى هاتين المرأةتين تعرف بأم منيع^(١) ...

أما الأخرى فهي نسيبة بنت كعب المازنِيَّة المكناة بأم عمارة.

عادت أم عمارة إلى «يشرب» فرحةً بما أكرمتها الله به من لقاء
الرَّسُول الأَعْظَم ﷺ.

عاقدةً العزم على الوفاء بشروط البيعة ...

ثم مضت الأيام سراعاً، حتى كان يوم «أُحُدٍ»، وكان لأم عمارة
فيه شأنٌ وأي شأنٍ؟!.

خرجت أم عمارة إلى «أُحُدٍ» تحمل سقاءها لتروي ظمآنَ المجاهدين
في سبيل الله.

ومعها لفائقها لتضمِّد^(٢) جراحهم ...

ولا عجب فقد كان لها في المعركة زوج وثلاثة أئنة:

هم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ...

وولدها حبيب^(١)، وعبد الله ...

(١) أم منيع: هي أماء بنت عمرو بن عدي بن ياسر الأنبارية السلمية، أم الصحابي معاذ بن جبل.

(٢) تضمد: تداوي جراحهم وتربطها بالضماد، وهو رباط الجرح.

وذلك بالإضافة إلى إخوتها من المسلمين الذين ^(٢) عن دين الله المنافقين عن رسول الله.

ثم كان ما كان يوم «أحد»...

فلقد رأى أم عمارة بعينيها كيف تحول نصر المسلمين إلى هزيمةٍ كبيرة...

وكيف أخذ القتل يشتد في صفوف المسلمين فيتساقطون على أرض المعركة شهيداً إثر شهيد...

وكيف زللت الأقدام، فتفرق الرجال عن رسول الله ﷺ حتى لم يبق معه إلا عشرة أو نحوها من عشرة...

مما جعل صارخ الكفار ينادي: لقد قتل محمد... لقد قتل محمد...

عند ذلك ألقى أم عمارة سقاءها، وانبرت إلى المعركة كالنمرة التي قصد أشباهها بشر...

ولترك لأم عمارة نفسها الحديث عن هذه اللحظات الحاسمة، فليس كمثلها من يستطيع تصويرها بدقة وصدق.

(١) حبيب بن زيد: انظره في كتاب «صور من حياة الصحابة» للمؤلف، الناشر دار الأدب الإسلامي، الطبعة المشروعة.

(٢) الذين: المدافعين عن دين الله.

قالت أم عمارة:

خرجت أول النهار إلى «أحد» ومعي سقاءً أسلقي منه المجاهدين حتى انتهيت إلى رسول الله ﷺ، والدولة والرّيح^(١) له ولمن معه... ثم ما لبث أن انكشف المسلمون عن رسول الله ﷺ فما بقي إلا في نفرٍ قليلٍ ما يزيدون على العشرة... فملت إليه أنا وابني وزوجي... وأحاطنا به إحاطة السوار بالمعصم، وجعلنا نذود عنه بسائر ما نملكه من قوّة وسلاح... ورأني الرّسول الكريم ﷺ ولا ثرس معنِّي أقى به نفسي من ضربات المشركين.

ثم أبصر رجلاً مولياً^(٢) ومعه ترسٌ فقال له: (القِي ثرك إلى من يقاتل) فألقى الرجل ثرسه ومضى... فأخذته وجعلت أتترس به عن الرّسول ﷺ... وما زلت أضارب عن النبي بالسيف... وأرمي دونه بالقوس حتّى أعجزني الجراح. وفيما نحن كذلك أقبل «ابن قمئه» كاجمل الهائج وهو يصبح: أين محمد؟... دلويني على محمدٍ.

(١) الدولة: النصر والغلب، والريح: القوة.

(٢) موليا: فارا هاربا.

فاعتبرت سبile أنا ومصعب بن عمير، فصرع مُصعباً بسيفه
وأرداه قتيلاً...

ثم ضربني ضربة خلقت في عاتقي جرحاً غائراً...
فضربته على ذلك ضرباتٍ، ولكنَّ عدوَ الله كانت عليه
درعان^(١) ...

ثم أتبعت نسبيَّة المازنِيَّة تقول: وفيما كان ابني يُناضل عن رسول الله ﷺ ضربه أحد المشركين ضربةً
كادت تقطع عضده... وجعل الدَّم يتفسَّر من جرحه الغائر...
فأقبلت عليه، وضمَّدت جرحه، وقلت له:

انهض يا بنِي وجالد^(٢) القوم... فالتفت إلى الرَّسول صلوات الله وسلامه عليه وقال:
(ومن يُطيق ما تطيقين يا أمَّ عمارة)؟!

ثم أقبل الرَّجل الذي ضرب ابني، فقال الرَّسول عليه الصَّلاة والسلام:
(هذا ضارب ابنك يا أمَّ عمارة).

فما أسرعت أن اعتبرت سبile وضربيه على ساقه بالسيف،
فسقط صريعاً على الأرض...

(١) الدرع: ثوب من الحديد يلبسه المخابر ليحمي صدره.

(٢) الجالدة: المضاربة بالسيف.

فأقبلنا عليه نتعاوره^(١) بالسُّيوف ونطعنه بالرِّماح حتَّى أجهزنا^(٢)
عليه، فالتفتَ إلَيَّ النَّبِيُّ الأَعْظَمُ ﷺ مبتسمًا وقال:
(لقد اقتصرت منه يا أمَّ عمارة...
والحمد لله الذي أظفرك به...
وأراك ثارك بعينك).

لم يكن ولدًا أمَّ عمارة أفلَ شجاعَةً وبذلًا من أمَّهما وأبيهما، ولا
أدَن تضحيةً وفاءً منهما...
فالولد سُرُّ أمَّه وأبيه، وصورةً صادقةً عنهما.
حدَثَ ابنها عبد الله قال:
شهدت «أُحُدًا» مع رسول الله ﷺ، فلما تفرقَ النَّاس عنَه دنوت
منه أنا وأمي نذب^(٣) عنه، فقال:
(ابن أمَّ عمارة؟).
قلت: نعم.
قال: (ارم...).

(١) نتعاوره: نضرره واحداً بعد آخر.

(٢) أجهزنا عليه: قضينا عليه وأهلكناه.

(٣) نذب: ندفع.

فرمیت بین یدیه رجلاً من المشرکین بحجر فوقع على الأرض، فما زلت أعلوه بالحجارة حتى جعلت عليه منها حملًا، والنبي عليه السلام ينظر إلى وبيتس...
السلام ينظر إلى وبيتس...
السلام ينظر إلى وبيتس...
السلام ينظر إلى وبيتس...

وحانت منه التفاتة فرأى جرح أمي على عاتقها يتصبب منه الدم
قال:

(أمك... أمك...)

اعصب جرحها. بارك الله عليكم أهل بيته...

لمقام أمك خير من مقام فلان وفلان ...

رحمكم الله أهل بيته).

فالتفتت إليه أمي وقالت:

ادع الله لنا أن نرافقك في الجنة يا رسول الله.

قال: (اللهم اجعلهم رفقاء في الجنة).

قالت أمي:

ما أبالي بعد ذلك ما أصابني في الدنيا.

ثم عادت أم عمارة من «أحد» بجرحها الغائر وهذه الدّعوة التي دعا لها بها الرسول الأعظم ﷺ.
دعا لها بها الرسول الأعظم ﷺ.

وعاد النبي عليه الصلاة والسلام من «أحد» وهو يقول:

(ما التفت يوم أحدٍ يعينا ولا شمالة إلا ورأيت أم عمارة تقاتل دوني).

ترست أم عمارة يوم «أحد» على القتال؛ فأتقتته...
وذاقت حلاوة الجهاد في سبيل الله؛ فما عادت تطيق عنه صبراً.
وقد كتب لها أن تشهد مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه
أكثر المشاهد... .

فحضرت معه الحديبية، وخيراً... .

وعمرة القضيّة^(١)، وحنيناً... .

وبيعة الرضوان... .

ولكن ذلك كله لا يعد شيئاً إذا قيس بما كان منها يوم «اليماما»
على عهد الصديق رضي الله عنها وعنها.

تبدأ قصة أم عمارة مع يوم «اليماما» منذ عهد الرسول صلوات
الله وسلامه عليه.

فقد بعث الرسول إلأعظم ﷺ ابنها حبيب بن زيد برسالة إلى
مسيلمة الكذاب.... .

فغدر مسيلمة بحبيب وقتلها قتلةً تشعر منها الجلد.

ذلك أن مسيلمة قيد حبيباً ثم قال له:

أتشهد أن محمداً رسول الله؟.

فقال: نعم.

(١) عمرة القضيّة أو عمرة القضاء: هي العمرة التي اعتمرها النبي ﷺ وأصحابه بعد صلح
الحادية.

فقال مسيلة: أتشهد أني رسول الله؟.

فقال: لا أسع ما تقول....

فقطع منه عضواً....

ثم مازال مسيلة يعيد عليه السؤال نفسه، فيرد عليه الجواب
نفسه.....

لا يزيد عليه ولا ينقص....

وكان في كل مرّة يقطع منه عضواً حتّى فاضت روحه الطّاهرة،
وذلك بعد أن ذاق من العذاب ما تنزل منه الصّنم الصّلاب^(١).

نعي الناعي حبيب بن زيد إلى أمّه نسيبة المازنیة فما زادت على أن

قالت:

من أجل مثل هذا الموقف أعددته....

وعند الله احتسبته...

لقد بايع الرّسول ﷺ ليلة العقبة^(٢) صغيراً...

ووَفِي له اليوم كبيراً...

ولئن أمكنني الله من مسيلة لأجعلنّ بناه يلطممن الخدود عليه...

لم يطئ اليوم الذي تمنّته نسيبة كثيراً...

(١) الصّنم الصّلاب: الصخور الصلبة

(٢) ليلة العقبة: ليلة بيعة العقبة.

حيث أذن مؤذن أبي بكرٍ في المدينة أن حيَّ على قتال المتبنِّي
الكذاب مسيلمة... .

فمضى المسلمون يحثُّون الخطأ إلى لقائه، وكان في الجيش أمُّ عمارة
المجاهدة الباسلة وولدها عبد الله ابن زيدٍ.

ولما التقى الجمuan وحمي وطيس^(١) المعركة كان يتربَّص مسيلمة نفرٌ
من المسلمين وعلى رأسهم أمُّ عمارة التي تريد أن تنتقم لابنها
الشهيدين... .

ووحشى بن حرب^(٢) قاتل حمزة يوم «أحدٍ»...
فقد كان يريد أن يقتل شرَّ النَّاس وهو مؤمنٌ.
بعد أن قتل أحد أخيار النَّاس وهو مشرِّكٌ.

لم تستطع أمُّ عمارة أن تصل إلى مسيلمة بعد أن قطعت يدها في
المعركة... .

وأثختها^(٣) الجراح... .

لكن وحشى بن حرب، وأبا دجانة صاحب سيف رسول الله ﷺ
وصلا إلى مسيلمة وضربه عن يد واحدة... .

(١) الوطيس: التنور، ويقال حمي وطيس المعركة: التهبت واشتدت.

(٢) وحشى بن حرب: انظره في كتاب «صور من حياة الصحابة» للمؤلف، الناشر دار الأدب الإسلامي، الطبعة المشروعة.

(٣) أثختها الجراح: أو هنتها وأضعفتها.

فقد طعنه وحشياً بالحرية...

وصربه أبو دحانة بالسيف...

فخرّ صريعاً في طرفة عينٍ.

عادت أم عمارة بعد «اليمامة» إلى المدينة بيد واحدة ومعها ابنها
الوحيد.

أمّا يدها إلّا خرى فقد احتسبتها ^(١) عند الله كما احتسبت من
قبل ولدها الشّهيد.

ولم لا تتحسّبهما؟!...

أمّ تقل للرسول عليه الصّلاة والسلام:
ادع الله لنا أن نرافقك في الجنة...

فقال الرّسول صلوات الله وسلامه عليه:
(اللّهم اجعلهم رفاقي في الجنة).

فقالت:

ما أبالي بعد ذما أصابني في الدُّنيا...

رضي الله عن أم عمارة وأرضها؛ فقد كانت طرزاً فريداً بين النساء
المؤمنات...

وأنموذجاً فدّاً بين المجاهدات الصّابرات ^(*) ...

(١) احتسبتها عند الله: طلبت أجرها عليها من الله.

(*) للاستزادة من أخبار نسيبة المازنیة انظر:

رَمْلَةُ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ

«أُمُّ حَبِيبَةَ آثَرَتِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَلَى مَا سِوَاهُمَا، وَكَرِهَتْ أَنْ تَعُودَ لِلْكُفَّارِ كَمَا يَكْرَهُ الْمَرْءُ أَنْ يُقْدَفَ فِي النَّارِ»

[المؤرّخون]

ما كان يخطر ببال أبي سفيان بن حربٍ أنَّ في وسع أحد من قريش أن يخرج على سلطانه^(١) أو يخالفه في أمرٍ ذي بالٍ^(٢). فهو سيد مكة المطاع... وزعيمها الذي تدين له بالولاء^(٣). لكنَّ ابنته رملة المكناة بأمٍّ حبيبة، قد بددت^(٤) هذا الزعم، وذلك حين كفرت بالله أبيهَا.

١ - الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣٠١٠/٨

٢ - الاستيعاب «على هامش الإصابة» : ٤٧٥٠./٤

٣ - الإصابة: ٤٧٩/٤ «الترجمة» ١٤٢٦.

٤ - صفة الصفوقة: ٣٤٠./٢

٥ - امتاع الأسماع: ١٤٨٠./١

٦ - تحذيب التهذيب: ٤٥٥/١٢.

(١) يخرج على سلطانه: يخالف أمره.

(٢) أمر ذو بال: أمر ذو أهمية و شأن.

(٣) الولاء: الطاعة والمتابعة.

(٤) بددت هذا الزعم: أبطلت هذا الزعم و مزقته.

وآمنت هي وزوجها عبد الله بن جحشٍ بالله وحده لا شريك له، وصدقَت برسالة نبيه محمد بن عبد الله.

وقد حاول أبو سفيان بكلٍّ ما أُتي من سطوة وبأسٍ^(١)، أن يردد ابنته وزوجها إلى دينه ودينه، فلم يفلح، لأنَّ الإيمان الذي رسخ في قلب رملة كان أعمق من أن تقتلعه أعاصير^(٢) أبي سفيان، وأثبتت من أن يزعزعه غضبه.

ركب أبو سفيان الهمُّ بسبب إسلام رملة، فما كان يعرف بأيِّ وجه يقابل قريشاً بعد أن عجز عن إخضاع ابنته لمشيئته، والليلولة دونها ودون اتباع محمد.

ولما وجدت قريشُ أنَّ أبو سفيان ساختَ على رملة وزوجها اجرأت عليهما، وطفقت تضيق عليهما الخناق، وجعلت ترهقهما^(٣) أشدَّ الإرهاق، حتى باتا لا يطيقان الحياة في مكة.

ولما أذن الرَّسول صلوات الله وسلامه عليه لل المسلمين بالهجرة إلى «الحبشة»، كانت رملة بنت أبي سفيان وطفلتها الصَّغيرة حبيبة،

(١) البأس: القوَّة.

(٢) أعاصير: جمع إعصار، وهو ريح شديدة ترتفع بتراً الأرض ومياه البحر.

(٣) ترهقهما: تعبهما وتعنيهما.

وزوجها عبد الله بن جحش^(١)، في طليعة المهاجرين إلى الله بدينهم، الفارّين إلى حمى «النجاشي»^(٢) بإيمانهم.

لَكُنْ أَبَا سَفِيَّانَ بْنَ حَرْبٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ زُعمَاءِ قَرِيشٍ، عَزَّ^(٣) عَلَيْهِمْ
أَنْ يَفْلُتَ مِنْ أَيْدِيهِمْ أُولَئِكَ النَّفَرُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَذُوقُوا طَعْمَ الرَّاحَةِ فِي بَلَادِ «الْحَبْشَةِ».

فَأَرْسَلُوا رَسُلَّهُمْ إِلَى النَّجَاشِيِّ يُحَرِّضُونَهُ^(٤) عَلَيْهِمْ، وَيَطْلَبُونَ مِنْهُ أَنْ يَسْلِمُهُمْ إِلَيْهِمْ، وَيَذْكُرُونَ لَهُ أَكْثَرَهُمْ يَقُولُونَ فِي الْمَسِيحِ وَأُمِّهِ مَرِيمَ قَوْلًا يَسُوءُهُ^(٥).

فَبَعْثَتِ النَّجَاشِيُّ إِلَى زُعمَاءِ الْمَهَاجِرِينَ، وَسَأَلَهُمْ عَنْ حَقِيقَةِ دِينِهِمْ، وَعَمَّا يَقُولُونَ فِي عِيسَى بْنِ مَرِيمِ وَأُمِّهِ، وَطَلَبُوا إِلَيْهِمْ أَنْ يَسْمَعُوهُ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ الَّذِي يَنْزَلُ عَلَى قَلْبِ نَبِيِّهِمْ.

فَلَمَّا أَخْبَرُوهُ بِحَقِيقَةِ إِلَّا سَلَامًا، وَتَلَوُا عَلَيْهِ بَعْضًا مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ،
بَكَى حَقَّ اخْضُلَّ^(٦) لَحِينَهُ وَقَالَ لَهُمْ:

(١) عبد الله بن جحش: هو أخو الصحابي الجليل عبد الله بن جحش ويقال اسمه عبد بن جحش.

(٢) النجاشي: ملك الحبشة، وقد سمع القرآن وأمن بالله ورسوله وأوى المسلمين انظره في «صور من حياة التابعين» للمؤلف، الناشر دار الأدب الإسلامي.

(٣) عَزَّ عَلَيْهِمْ: صعب عليهم.

(٤) يُحَرِّضُونَهُ عَلَيْهِمْ: يشرونوه عليهم.

(٥) يَسُوءُهُ: يؤذيه ويحزنه.

إنَّ هذا الذي أنزل على نبيِّكم مُحَمَّدٌ، والذي جاء به عيسى بن مريم يخرجان من مشكاة^(٢) واحدةٍ.

ثُمَّ أَعْلَنَ إِيمَانَه بِالله وَحْدَه لَا شَرِيكَ لَهُ، وَتَصْدِيقَه لِنبُوَّةِ مُحَمَّدٍ
صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُه عَلَيْهِ... .

كما أَعْلَنَ حِمَايَتَه لِمَنْ هَاجَرَ إِلَى أَرْضِه مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ
أَنَّ بَطَارِقَتِه^(٣) أَبْوَا أَنْ يَسْلُمُوا، وَظَلَّلُوا عَلَى نَصْرَانِيَّتِهِمْ.

حَسِبْتَ^(٤) أُمُّ حَبِيبَةَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ الْأَيَّامَ صَفَتْ لَهَا بَعْدَ طَوْلِ
عَبُوسٍ... وَأَنَّ رَحْلَتَهَا الشَّاقَّةَ فِي طَرِيقِ الْآلَامِ قَدْ أَفْضَتْ^(٥) بِهَا إِلَى
وَاحِدَةِ الْأَمَانِ... .

إِذْ لَمْ تَكُنْ تَعْلَمَ مَا خَبَأَتْ لَهَا الْمَقَادِيرِ... .

فَلَقَدْ شاءَ الله تبارَكَتْ حُكْمُتَهُ، أَنْ يَمْتَحِنَ أُمَّ حَبِيبَةَ امْتِحَانًاً قَاسِيًّاً
تَطِيشَ^(١) فِيهِ عُقُولَ الرِّجَالِ ذُوي الْأَحْلَامِ^(٢) وَتَنْتَسِعُ أَمَامَهُ أَفْهَامُ
ذُوي الْأَفْهَامِ. .

(١) اخْضَلَتْ لَحِيَتَهُ: تَبَلَّتْ لَحِيَتَهُ.

(٢) المشكاة: ما يوضع عليه المصباح، (أي من مصدر نور واحد).

(٣) البطارقة: جمع بطريق وهو القائد.

(٤) حَسِبْتَ أُمُّ حَبِيبَةَ: ظَنَّتْ.

(٥) أَفْضَتْ بِهَا: انتَهَتْ بِهَا وَأَوْصَلَتْهَا.

وأن يخرجها من ذلك **إلأبتلاء الكبير ظافرةً تترَّعَ**^(٣) على قمة
النَّجَاحِ ...

ففي ذات ليلةٍ أوتَ أمُّ حبيبةٍ إلى مضجعها، فرأَتْ فيما يراه النائم
أن زوجها عبيد الله بن جحشٍ يتختبَطُ في بحرٍ **جَلْجِيٍّ**^(٤) غشيه
ظلماتٌ^(٥) بعضها فوق بعضٍ، وهو بأسوءِ حالٍ ...
فهَبَتْ من نومها مذعورةً^(٦) مضطربةً ...
ولم تشاً أن تذكر له أو لأحدٍ غيره شيئاً ممَّا رأتِ ...
لكن رؤياها ما لبستْ أن تحقَّقتْ، إذ لم ينقض يوم تلك الليلة
المشؤومة^(٧) حتَّى كان عبيد الله بن جحشٍ، قد ارتدَ عن دينه
وتنصرَ ...
ثمَّ أكبَّ على حانات^(٨) الخمارين يُعاور^(٩) أمَّ الْخَبَائِثِ^(١) فلا
يرتوي منها ولا يشبَع.

(١) تطيش: تتوه وتضلُّ.

(٢) ذُوو الأَحَلام: أصحاب العقول.

(٣) تترَّعَ: تجلس.

(٤) بحرُ **جَلْجِيٍّ**: بحر ذو لحج متلاطمة.

(٥) غشيه ظلمات: غطَّته ظلمات وأطبقت عليه.

(٦) هَبَّتْ مذعورة: نهضت خائفة.

(٧) الليلة المُشَوَّمَة: الليلة التعيسة.

(٨) حانات الخمارين: دكاكين الخمارين.

(٩) يعاور الخمر: يلازمها ويدمن عليها.

وقد خَيَّرَها بين أمرين أحلاهما مُرًّا:

فإِما أن تطلُّق...

وإِما أن تنتصِر...

وَجَدَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ نَفْسَهَا فَجَاهَهَا بَيْنَ ثَلَاثٍ:

فِيمَا أَنْ تَسْتَجِيبَ لِزَوْجَهَا الَّذِي جَعَلَ يُلْحُّ فِي دُعَوَتَهَا إِلَى التَّنَصُّرِ؛
وَبِذَلِكَ تَرْتُدُّ عَنِ دِينِهَا - وَالْعِيَادَ بِاللَّهِ - وَتَبُوءَ^(٢) بِخَزِيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ
الآخِرَةِ.

وَهُوَ أَمْرٌ لَا تَفْعَلُهُ وَلَوْ مُشْطِ لَهُمَا عَنْ عَظَمَهُمَا بِأَمْشاطِ مِنْ
جَدِيدٍ...

وَإِمَّا أَنْ تَعُودَ إِلَى بَيْتِ أَبِيهَا فِي مَكَّةَ، وَهُوَ مَا زَالَ قَلْعَةً لِلشَّرِكِ،
فَتَعِيشُ فِيهِ مَقْهُورَةً مَغْلُوبَةً عَلَى دِينِهَا.

وَإِمَّا أَنْ تَبْقَىَ فِي بَلَادِ «الْحَبْشَةِ» وَحِيدَةً، شَرِيدَةً، لَا أَهْلَ لَهَا وَلَا
وَطْنَ وَلَا مُعِينَ.

فَآثَرَتْ^(٣) مَا فِيهِ رَضَا اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَا سَواه...
وَأَزْمَعَتْ^(١) عَلَى الْبَقَاءِ فِي «الْحَبْشَةِ» حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِفَرَجٍ مِنْ
عِنْدِهِ.

(١) أُمُّ الْحَبَائِثُ: كُنَيَّةُ عَنِ الْخَمْرِ، وَدُعِيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا أَصْلُ كُلِّ شَرٍّ.

(٢) تَبُوءَ بِخَزِيِ الدُّنْيَا: تَرْجِعُ بِعَارِ الدُّنْيَا.

(٣) آثَرَتْ: فَضَلَّتْ وَاخْتَارَتْ.

لم يطل انتظار أم حبيبة كثيراً.

فما إن انقضت عدّتها^(٢) من زوجها الذي لم يعش بعد تنصُّره إلاَّ
قليلًا حتى أتاه الفرج...

لقد جاءها السَّعد يرفرف بأجنحته الزُّمرديَّة^(٣) الخضر فوق بيتها
المخزون على غير ميعادٍ...

ففي ذات صحي مفضض السَّنَا^(٤) طلق المخيَا طرق عليها الباب؛
فلمَا فتحته فوجئت «بأبرهة» وصيفة^(٥) النَّجاشيِّ ملك «الحبشة».

فحينها بأدب وبشر، واستأنفت بالدخول عليها وقالت:

إنَّ الملك يحييك ويقول لك:

إنَّ محمداً رسول الله قد خطبك لنفسه...

وإنَّه بعث إليه كتاباً وَكَلَه فيه بأن يعقد له عليك ... فوَكْلي عنك
من تشائين.

استطارت^(٦) أم حبيبة فرحاً، وهتفت:

(١) أَزَمَّتْ: عزمت وقررت.

(٢) العدَّة: المدة المشروعة التي تقضيها المرأة بعد وفاة زوجها أو طلاقها منه.

(٣) الزمرديَّة: نسبة إلى الزمرد، وهو حجر كريم أخضر اللون.

(٤) مفضض السَّنَا: أي سناء فضي اللون والسنَا: الضوء.

(٥) وصيفة النَّجاشي: خادمتها الخاصة.

(٦) استطارت فرحاً: كادت تطير من شدة الفرح.

بَشَّرَكُ اللَّهُ بِالْخَيْرِ... بَشَّرَكُ اللَّهُ بِالْخَيْرِ...

وَطَفِقَتْ تَخْلُعُ مَا عَلَيْهَا مِنَ الْحَلِّيِّ؛ فَنَزَعَتْ سَوَارِيهَا، وَأَعْطَهُمَا
لِأَبْرَهَةِ...^(١)

ثُمَّ أَحْقَتَهُمَا بِالْخُلُّخَالِ^(٢)... ثُمَّ أَتَبَعَتْ ذَلِكَ بِقُرْطِيهِا
وَخَوَاتِيمِهَا...^(٣)

وَلَوْ كَانَتْ تَمْلِكَ كَنْوَزَ الدُّنْيَا كُلَّهَا لَأَعْطَتَهَا لَهَا فِي تِلْكَ الْحَظَةِ.
ثُمَّ قَالَتْ لَهَا: لَقَدْ وَكَلْتِ عَنِي خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ بْنُ الْعَاصِ^(٤)، فَهُوَ
أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيَّ.^(٥)

وَفِي قَصْرِ النَّحَاشِيِّ الرَّابِضِ عَلَى رَابِيَّةِ شَجَرَاءِ^(٦) مَطْلَةً عَلَى رَوْضَةٍ
مِنْ رِيَاضِ «الْحَبْشَةِ» النَّضْرَةِ.

وَفِي أَحَدِ أَبْهَائِهِ^(٧) الْفَسِيْحَةِ الْمَرْدَانَةِ بِالْنُّقُوشِ الزَّاهِيَةِ، الْمَضَاءِ
بِالسُّرُجِ^(٨) النَّحَاسِيَّةِ الْوَضَاءَةِ، الْمَفْرُوشَةِ بِفَالِّخِ الرِّيَاشِ... اجْتَمَعَ وَجْهُهُ
الصَّحَابَةِ الْمُقِيمِينَ فِي «الْحَبْشَةِ»، وَعَلَى رَأْسِهِمْ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ،

(١) الْخُلُّخَالُ: ضَرْبٌ مِنَ الْحَلِّيِّ تَضَعُهُ الْمَرْأَةُ فِي رِجْلِهَا.

(٢) الْقُرْطُ: الْخَلْقُ.

(٣) خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ بْنُ الْعَاصِ: انْظُرْهُ فِي كِتَابِ «صُورُ مِنْ حَيَاتِ الصَّحَابَةِ» لِلْمُؤْلِفِ،
النَّاشرُ دَارُ الْأَدْبُرِ الإِسْلَامِيِّ، الطَّبْعَةُ الْمَشْرُوَّةُ.

(٤) رَابِيَّةُ شَجَرَاءِ: رَابِيَّةُ ذَاتِ شَجَرٍ.

(٥) الْأَبْهَاءُ: جَمْعُ بَهْوٍ، وَهُوَ الْقَاعَةُ الْوَاسِعَةُ.

(٦) السُّرُجُ: جَمْعُ سَرَاجٍ، وَهُوَ الْمُصِيَّاحُ الَّذِي يَضَاءُ بِالرَّيْتِ وَنَحْوِهِ.

وَخَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ بْنِ الْعَاصِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنِ حَذَافِهِ السَّهْمِيُّ^(١)، وَغَيْرُهُمْ لَشَهَدُوا عَقْدَ أُمّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سَفِيَّانَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَلَمَّا اجْتَمَعَ الْجَمْعُ، تَصَدَّرَ النَّحَاشِيُّ الْمُجْلِسُ وَخَطَبُوهُمْ فَقَالَ: أَحْمَدُ اللَّهَ الْقَدُّوسُ الْمُؤْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَارُ^(٢)، وَأَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي بَشَرَ بِهِ عَيْسَى بْنُ مَرْيَمَ أَمَّا بَعْدُ... إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَلَبَ مِنِّي أَنْ أَزُوْجَهُ أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سَفِيَّانَ، فَأَجْبَتُهُ إِلَى مَا طَلَبَ، وَأَمْهَرْتُهُ نِيَابَةً عَنْهُ أَرْبَعَمِائَةِ دِينَارٍ ذَهَبًا...

عَلَى سَنَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...

ثُمَّ سَكَبَ الدَّنَانِيرَ بَيْنَ يَدَيِ خَالِدٍ بْنِ سَعِيدٍ بْنِ الْعَاصِ.

وَهُنَا قَامَ خَالِدٌ فَقَالَ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ أَحْمَدُهُ وَأَسْتَعِينُهُ، وَاسْتَغْفِرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِدِينِ الْمَهْدِيِّ وَالْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ^(٣) عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ.

أَمَّا بَعْدُ...

(١) انظرهم في كتاب «صور من حياة الصحابة» للمؤلف، الناشر دار الأدب الإسلامي، الطبعة المنشورة.

(٢) القدوس، المؤمن، العزيز، الجبار: من أسماء الله الحسنى.

(٣) ليظهره: ليجعله غالباً قوياً ظاهراً.

فقد أجبت طلب رسول الله ﷺ، وزوجته موكلي أم حبيبة بنت أبي سفيان.

فبارك الله لرسوله بزوجته... .

وهنئياً لأم حبيبة بما كتب الله لها من الخير.

ثم حمل المال وهم أن يضي به إليها؛ فقام أصحابه لقيامه وهموا بالانصراف أيضاً.

فقال لهم النجاشي: اجلسوا فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يطعموا طعاماً.

ودعا لهم بطعم فأكل القوم ثم انقضوا^(١).

قالت أم حبيبة:

فلما وصل المال إلى أرسلت إلى «أبرهة» التي بشرتني خمسين مثقالاً^(٢) من الذهب؛ وقلت:

إني كنت أعطيتك ما أعطيت حين بشرتني، ولم يكن عندي يومئذ مال... .

فما هو إلا قليل حتى جاءت «أبرهة» إلى وردة الذهب، وأخرجت حفناً^(١) فيه الحلبي الذي كنت أعطيتها إياه فردها إلى أيضًا

وقالت:

(١) انقضوا: تفرقوا.

(٢) المثقال: ما يوزن به الذهب ونحوه.

إِنَّ الْمَلَكَ قَدْ عَزَمَ عَلَيَّ أَلَاَ آخِذُ مِنْكَ شَيْئًا.
وَقَدْ أَمْرَ نِسَاءَهُ أَنْ يَعْشُنَ لَكَ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُنَّ مِنَ الطَّيِّبِ.
فَلَمَّا كَانَ الْغَدِ جَاءَتِنِي بُورْسٍ^(٢)، وَعُودٍ^(٣) وَعَنْبَرٍ، ثُمَّ قَالَتْ لِي:
إِنَّ لِي عِنْدَكَ حَاجَةً
فَقَلَّتْ: وَمَا هِي؟!
فَقَالَتْ:

لَقَدْ أَسْلَمْتُ، وَاتَّبَعْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ، فَاقْرَئِي عَلَى النَّبِيِّ مِنْيَ السَّلَامِ
وَأَعْلَمْيَهُ أَنِّي آمَنَتْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَنْسِي ذَلِكَ...
ثُمَّ جَهَّزَتِنِي^(٤).

ثُمَّ إِنِّي حَمَلْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...
فَلَمَّا لَقِيَهُ، أَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْخُطْبَةِ، وَمَا فَعَلَهُ مَعَ «أَبْرَهَةَ»
وَأَقْرَأَهُ مِنْهَا السَّلَامَ.
فَسَرَّ بِخُبُرِهَا وَقَالَ:
(وعليها السلام ورحمة الله وبركاته)^(*).

(١) الحق: بضم الحاء وفاء الطيب.

(٢) الورس: نبات أصفر يُتَّخذ منه الرغovan.

(٣) العود: ضرب من الطيب يتبعثر به.

(٤) جَهَّزَتِنِي: أَعَدَّتْ لِي جهازي.

(*) للاستزاده من أخبار رملة بنت أبي سفيان انظر:

الغَمِيصَاءُ بِنْتُ مِلْحَانَ

الْمُكَنَّاةُ بِأُمِّ سُلَيْمٍ

«مَا سَمِعْنَا بِأَمْرَأٍ قَطُّ كَانَتْ أَكْرَمَ مَهْرًا مِنْ أُمّ سُلَيْمٍ؛ إِذْ كَانَ
مَهْرُهَا إِلَسْلَامُ»

[أَهْلُ الْمَدِينَةِ]

كانت الغميصاء بنت ملحان - حين أهل الإسلام بنوره على الأرض - نصفاً تخطو نحو الأربعين من عمرها، وكان زوجها مالك

١- الإصابة: «الترجمة» : ٣٠٣٠/٤

٢- الاستيعاب: «على هامش الإصابة» : ٣٠٣٠/٤

٣- أسد الغابة: ٤٥٧٠/٥

٤- صفوية الصفوية: ٢٢٠/٢

٥- المعارف لابن قتيبة: ١٣٦٠، ٣٤٤٠

٦- سير أعلام النبلاء.

٧- مرآة الجنان للبياعي.

٨- السيرة النبوية لابن هشام: «انظر الفهارس» .

٩- تاريخ الطبرى: «انظر الفهارس في العاشر» .

١٠- طبقات ابن سعد: «انظر الفهارس في الثامن» .

١١- تحذيب التهذيب لابن حجر: ١٢/٤١٩٠

١٢- حياة الصحابة: «انظر الفهارس» .

١٣- أعلام النساء لـ كحالة: ١/٤٦٤ .

بن النَّضر يسبغ عليها من وارف^(١) حَبَّه، وظليل وداده ما ملأ حياتها نصرةً^(٢) ورغداً^(٣) وكان أهل «يشرب» يغبطون الزَّوج السَّعيد على ما تتحلّى به عقليته من رجاحة العقل، وبعد النَّظر، وحسن التَّبَّاعُل^(٤).

وفي ذات يومٍ من أَيَّامِ اللَّهِ الْخَالِدَةِ نَفَذَ إِلَى «يشرب» — مع الدَّاعِيَةِ المُكَيِّ مصعْبَ بْنِ عَمِيرٍ^(٥) — أَوَّلَ شَعَاعٍ مِّنْ أَشْعَاعِ الْهَدَايَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، فَتَفَتَّحَ لَهُ قَلْبُ الْغَمِيصَاءِ كَمَا تَفَتَّحَ أَزَاهِيرُ الرِّيَاضِ لِتِبَاشِيرِ الصَّبَاحِ، فَلَمَّا لَبِثَتْ أَنْ أَعْلَنَتْ إِسْلَامَهَا يَوْمَ كَانَ الْمُسْلِمُونَ — فِي الْمَدِينَةِ — يَعْدُونَ عَلَى الأَصَابِعِ.

ثُمَّ دَعَتِ الْزَّوْجَةُ الْوَفِيقَةُ زَوْجَهَا الْأَثِيرَ لِيَنْهَلَ مَعَهَا مِنْ هَذَا الْمَنْهَلِ الْإِلَهِيِّ الْعَذْبِ الْطَّهُورِ، وَيَحْظِيُ بِمَا حَظِيتْ بِهِ مِنْ سَعَادَةِ الإِيمَانِ... لَكِنَّ مَالِكَ بْنَ النَّضرَ لَمْ يَشْرُحْ لِلَّدِينِ الْجَدِيدِ صَدِّرًا، وَلَا طَابَ بِهِ نَفْسًا، بَلْ إِنَّهُ دَعَا زَوْجَهِ بِالْمُقَابِلِ إِلَى الرُّجُوعِ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْعُودَةِ إِلَى

(١) وارف حَبَّه: ظلال حَبَّه الممتدة.

(٢) النصرة: الرونق واللطف والبهجة والبهاء.

(٣) رغداً: الرغد العيش الواسع الطيب الذي لا تعب فيه.

(٤) التَّبَّاعُلُ: أداء حق الزوج بالطاعة والإحسان.

(٥) مصعْبَ بْنِ عَمِيرَ بْنِ هَاشِمَ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ الْقَرْشِيُّ: أَحَدُ السَّابِقِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَوَّلُ الْمُبَشِّرِينَ بِهِ خَاجَ مَكَّةَ، اسْتَشْهَدَ يَوْمًا «أَحَد».

دين الآباء والأجداد وتشبّث كلُّ من الزوجين بموافقه، فالغميصاء تكره أن تعود إلى الكفر بعد الإيمان كما يكره المرء أن يقذف في النار...

ومالكُ يتعصّب لدين الآباء والأجداد في عنايٍ...

وكانت الغميصاء تملك من قوَّة الحجَّة ما تفحِّم^(١) به زوجها، وكان في دعوتها من نور الحقّ ما يفضح باطله الواهي^(٢) المتهافت^(٣)...

وكان مالكٌ صنُّ من خشبٍ يعبده من دون الله، فكانت تتحاجُّه في أمره قائلاً:

أَتَعْبُدُ جَذْعَ شَجَرٍ نَبَتَ فِي الْأَرْضِ الَّتِي طَوَّهَا بِقَدْمِيِّكَ، وَتَرَمَّى فِيهَا فَضَلَّاتِكَ؟!...

أَتَدْعُوا - مِنْ دُونِ اللهِ - خَشْبًا نَجَرَهَا لَكَ حَبْشِيٌّ مِنْ صَنَاعَةِ الْمَدِينَةِ؟!.

ولما ضاق الزوج ذرعاً بحجج زوجته الدامغة^(٤) غادر المدينة ومضى هائماً على وجهه متّجهاً نحو بلاد الشام، ثمَّ إنَّه لم يلبث هناك قليلاً حتَّى مات على شركه.

(١) ما تفحِّم: ما تسكت به زوجها من الدليل والبرهان.

(٢) الواهي: الضعيف الذي لا قوام له.

(٣) المتهافت: المتساقط المتداعي.

(٤) الدامغة: التي لا يجد الخصم عنها حولاً.

وما إن شاع في المدينة خبر ترُّمِل الغميساء حَتَّى تشوّق كثيرون من الرجال إلى إلقاءً تران بها، لولا أَهْمَّ كانوا يخشون أن تردهم خائبين لما بينها وبينهم من الاختلاف في الدين.

غير أنَّ زيد بن سهل^(١) المكنى بأبي طلحة أطمعه في رضاها به ما كان بينهما من روابط القرابة، فكلاهما من بني «النَّجَار».

مضى أبو طلحة إلى بيت الغميساء وخطبها بكليتها قائلاً:

يا أمَّ سليم، لقد جئتكم خطبًا، فأرجو ألاَّ أردَّ خائبًا.

فقالت: والله ما مثلك يرُدُّ يا أبا طلحة، ولكنك رجلٌ كافرٌ وأنا امرأة مسلمة، ولا يحل لي أن أتزوجك، فإن تسلم فذاك مهرى ولا أريد منك صداقًا غير الإسلام.

فقال: دعوني حتَّى أنظر في أمري. ومضى...

ولما كان الغد عاد إليها وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّداً عبدَه ورسولَه.

فقالت: أما وإنَّك قد أسلمت، فقد رضيتك زوجًا... فجعل الناس يقولون: ما سمعنا بامرأة قط كانت أكرم مهراً من أمَّ سليم إذ كان مهراً الإسلام.

(١) زيد بن سهل: انظره في كتاب «صور من حياة الصحابة» للمؤلف، الناشر دار الأدب الإسلامي، الطبعة المشروعة.

نعم أبو طلحة بما كانت تتحلى به أم سليم من كريم الشّمائل^(١)، ونبيل الخصائل، ثم زاده سعادةً بها أَهْمَا وضعت له غلامًا غدا قرّة عينه، وفرحة قلبه.

لكنه بينما كان يتأهّب لسفرٍ من أسفاره اشتكتي الطفل الصّغير من علّة ألمت به، فجزع عليه جزعاً شديداً كاد يصرفه عن السّفر. وفي غيته القصيرة ذوى^(٢) الغصن النّضير^(٣)، ثم ووري الشّرى^(٤)، فقالت أم سليم لأهلها:

لا تخروا أبا طلحة بموت ابنه حتّى أخبره أنا.

عاد أبو طلحة من رحلته فلتّفته أم سليم هاشّة باشّة فرحةً مستبشرةً؛ فبادرها بالسؤال عن الصّبيِّ فقالت:

دعه فإنه الآن أسكن ما عرفته.

ثم قربت إليه العشاء، وجعلت تؤنسه وتدخل على قلبه السرور، فلما وجدت أنه شبع واستراح قالت له:

يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوماً استرجعوا عاريّة^(١) أغاروها لآخرين أفمن حقّهم أن يخطوا عليهم أن يمنعوها منهم؟.

(١) كريم الشّمائل: ذو خصال كريمة حميدة.

(٢) ذوى: ذبل وضعف.

(٣) النّضير: الحسن الجميل.

(٤) ووري الشّرى: دفن في التراب.

قال: لا.

قالت: إن الله استرَّدَ منك ما وَهَبَ، فاحتسِبْ ولدك عندَه...

فتلقى أبو طلحة قضاء الله بالرّضا والتَّسْلِيم.

ولما أَصْبَحَ غداً عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَحْدَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أُمِّ سَلِيمٍ،
فَدَعَا لَهُ وَلَهَا بِأَنْ يَعُوْضُهُمَا اللَّهُ خَيْرًا مَمَّا فَقَدَاهُ، وَأَنْ يَبْارِكَ لَهُمَا فِي
الْعَوْض؛ فَاسْتَجَابَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَ دُعَاء نَبِيِّهِ ﷺ، وَحَمَلَتْ أُمُّ سَلِيمٍ
وَلَمَا أَتَتْ حَمْلَهَا كَانَتْ عَائِدَةً إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ سَفَرِهِي وَزَوْجَهَا مَعَ
رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَلَمَّا دَنَوا مِنْ «يَثْرَب» جَاءَهَا الْمَخَاضُ فَتَوَقَّفَ أَبُو طَلْحَةَ مَعَهَا
وَمَضَى النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ يَرِيدُ دُخُولَ الْمَدِينَةِ قَبْلَ أَنْ يَجِئَ عَلَيْهِ اللَّيلُ،
فَرَفَعَ أَبُو طَلْحَةَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ:

إِنَّكَ لَتَعْلَمُ يَا رَبَّ أَنَّهُ يَعْجَبُنِي أَنْ اخْرُجَ مَعَ رَسُولِكَ إِذَا خَرَجَ، وَأَنْ
أَدْخُلَ مَعَهُ إِذَا دَخَلَ وَقَدْ مَنَعَنِي مِنْ ذَلِكَ مَا تَرَى.

فَقَالَتْ لَهُ أُمُّ سَلِيمٍ: يَا أَبَا طَلْحَةَ إِنِّي - وَاللَّهُ - لَا أَجِدُ مِنْ أُمِّ
الْمَخَاضِ بِهَذَا الْمَوْلُودِ مَا كَنْتُ أَجِدُهُ مِنْ قَبْلِهِ، فَانطَّلَقَ بَنَا وَلَا تَأْخَرَ
عَنْ صَحْبَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَانطَّلَقا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَا الْمَدِينَةَ وَضَعَتْ حَمْلَهَا، فَإِذَا هُوَ غَلامٌ،

فَقَالَتْ لِمَنْ حَوْلَهَا:

(١) عَارِيَةٌ: الشَّيْءُ الْمُسْتَعَارُ الَّذِي يَجِبُ رِدَّهُ.

لا يرضعه أحد قبل أن تذهبوا به إلى رسول الله ﷺ.
فلما أصبح حمله إليه أخوه أنس بن مالك^(١)، فلما رأه النبي ﷺ
مقبلاً قال:
(لعل أم سليم ولدت).

فقال: نعم يا رسول الله ... ووضع الغلام في حجره، فدعا بعجوةٍ
من عجو المدينة ولاكها في فمه الشريف حتى ذابت، ووضعها في فم
الصبيّ، فجعل يتلمظها^(٢)، ثم مسح وجهه بيده الكريمة، وسمّاه عبد
الله، فجاء من صلبة عشرةٍ من علماء الإسلام الآخيار.

ولقد كان من شأن أم سليم أنها أحبت رسول الله صلوات الله
وسلامه عليه حباً خالط منها اللحم والعظم، وسكن في حبة القلب.
وقد بلغ من حبها له ما حدث عنه ابنتها أنسٌ قال:
كان رسول الله ﷺ نائماً في بيته ذات نهارٍ؛ وكان الحر شديداً،
فأخذ العرق يتصلب من جبينه، فجاءت أمي بقارورة، وجعلت
تُسلّت فيها العرق فاستيقظ النبي ﷺ عليه الصلاة والسلام وقال:
(ما هذا الذي تصنعين يا أم سليم؟!).
قالت: هذا عرقك أجمعه وأجعله في طينا، فيغدو أطيب الطيب.

(١) أنس بن مالك: انظره في كتاب «صور من حياة الصحابة» للمؤلف، الناشر دار الأدب الإسلامي، الطبعة المشروعة.

(٢) يتلمظها: أي يتبع بلسانه بقيتها ويسع بشفتيه.

ومن شواهد حبّها لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه وهي كثيرة وفيه، أن ابنها أنساً كانت له ذؤابة^(١) تنوس^(٢) على جبينه، فرغبت إليها زوجها أن تقصّها له بعد أن طالت فأبى ذلك؛ لأنَّ النَّبِيَّ صلوات الله وسلامه عليه كان كُلَّما أقبل عليه أنسٌ مسح رأسه بيده ومسَّ ذُؤابته المدللة على جبينه.

ولم تقتصر خصائص أم سليم على أنها كانت مؤمنةً راسخة الإيمان، عاقلةً وافرة العقل، زوجاً وأمًا من الطراز الأول... وإنما كانت فوق ذلك كله مجاهدة في سبيل الله. فلكلم ملأت رئتها من غبار المعارك العبق^(٣) بطيوب الجنة!!.. وخضّبت^(٤) أناملها من جراح المجاهدين، وهي تمسحها بيديها وتحكم عليها الضّماد^(٥). ولكلم سكبت الماء في حلوق العطاش وهم يجودون بنفسهم في سبيل الله... وحملت لهم الزَّاد... وأصلحت السّهام.

(١) الذؤابة: خصلة من الشعر في مقدمة الرأس.

(٢) تنوس: تتمايل.

(٣) العبق: المضمخ بالطيب.

(٤) خضّبت: لونت، والخضاب: هو الحناء.

(٥) الضّماد: ما يربط به الجرح.

لقد شهدت «أحداً» هي زوجها أبو طلحة مع رسول الله ﷺ، ودافت هي وعائشة رضوان الله عليهما على نقل قرب الماء على ظهريهما وإفراغها في أفواه القوم.

كما شهدت «حنيناً» أيضاً، وقد اتخذت لنفسها يومذاك حنجرًا وتنطق به، فلما رأه زوجها أبو طلحة قال: يا رسول الله، هذه أم سليم معها خنجر.

فقال لها النبي عليه الصلاة والسلام:

(ما هذا يا أم سليم؟!).

قالت: خنجر أخذته حتى إذا دنا ميّ أخذ من المشركين بقرت^(١) به بطنه ...

فجعل رسول الله ﷺ يضحك سروراً بما قالت.

وبعد ...

افتظن أن على ظهر الأرض امرأة أسعد سعادة وأزهى خاتمة من أم سليم بعد أن قال فيها رسول الله ﷺ: (دخلت الجنة فسمعت فيها خشفة)^(٢) ... فقلت: من هذا؟!. قالوا:

(١) بقرت بطنه: شقت بطنه.

(٢) خشفة: حركة مشي.

الغميساء بنت ملhan أمُّ أنس بن مالك^{*}.

(*) للاستزادة من أخبار الغميساء بنت ملhan انظر:

- ١ - الطبقات الكبرى /٤٦٧، ٤٠٧ و ١١٦ و ٣٥١ و ١٩٧ و ٨١٧، ١٢١، ٨٠، ١٠٤
- ٢ - تاريخ الطبرى: ٢١/٢ «وانظر الفهارس في العاشر» .
- ٣ - حياة الصحابة: «انظر الفهارس في الرابع» .
- ٤ - السيرة لابن هشام: ٤/٣٥٤ - ٢/٨٨.
- ٥ - سير أعلام النبلاء: ٤/٣١١ - ٢/٣٠٤
- ٦ - المعارف لابن قتيبة: ٣٧١، ٣٠٨
- ٧ - أعلام النساء لـكحالة: ٢/٢٥٦٠
- ٨ - تحذيب التهذيب: ١٢/٤٧١٠
- ٩ - الإصابة: ٤/٤٦١ «الترجمة» . ١٣٢١٠
- ١٠ - الاستيعاب «على هامش الإصابة» : ٤/٤٥٥.
- ١١ - حلية الأولياء: ٢/٥٧٠
- ١٢ - صفة الصفوة: ٢/٦٥٠
- ١٣ - أسد الغابة: ٧/٢١٢٠
- ١٤ - الحبر: ٤٢٨.

أم سلمة

أيم العرب

«لَمْ تَبْقَ هِنْدُ الْمَخْزُومِيَّةُ أُمًا لِسَلَمَةَ وَحْدَهُ، وَإِنَّمَا غَدَتْ أُمًا

لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ»

أم سلمة، وما أدرك ما أم سلمة؟!.

أما أبوها فسيد من سادات «مخزوم» المرموقين، وجواه من أجواد العرب المعدودين، حتى إنه كان يقال له: «زاد الرَّاكِب»^(١)، لأن الركبان كانت لا تنزوء إذا قصدت منازلة أو سارت في صحبته.

وأمها زوجها عبد الله بن عبد الأسد أحد العشرة السابقين إلى الإسلام؛ إذ لم يسلم قبله إلا أبو بكر الصديق ونفر قليل لا يبلغ أصابع اليدين عدداً.

وأمها اسمها فهند، لكنها كنيت بأم سلمة، ثم غلت عليها الكنية.

أسلمت أم سلمة مع زوجها فكانت هي الأخرى من السابقات إلى الإسلام أيضاً.

وما إن شاع نباء إسلام أم سلمة وزوجها حتى هاجت قريش وما جت وجعلت تصب عليهما من نكالها^(١) ما يزلزل الصم الصّلاب^(٢)، فلم يضعفها ولم يهنا ولم يتربدا.

(١) هو أبو أمية بن المغيرة القرشي.

ولما اشتد عليهما الأذى وأذن الرَّسُول صلوات الله عليه لأصحابه بالهجرة إلى «الحبشة» كانوا في طليعة المهاجرين.

مضت أم سلمة وزوجها إلى ديار الغربة وخلفت وراءها في مكة بيتها البادخ^(٣) وعزّها الشامخ، ونسبها العريق، محتسبة^(٤) ذلك كله عند الله، مستقلةً له في جنب مرضاته.

وعلى الرَّغم مما لقيته أم سلمة وصحبها من حماية النجاشي^(٥) نصر الله في الجنة وجهه، فقد كان الشّوق إلى مكة مهبط الوحي، والحنين إلى رسول الله ﷺ مصدر المدى يفري كبدها وكبد زوجها فرِيَا.

ثم تابعت الأخبار على المهاجرين إلى أرض «الحبشة» بأن المسلمين في مكة قد كثر عدهم، وأن إسلام حمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب قد شدَّ من أزرهم^(٦)، وكفَ شيئاً من أذى قريش

(١) النكال: الأذى الشديد الذي يجعل المصايب به عبره لغيره.

(٢) الصم الصّلاب: الصخور القاسية.

(٣) البادخ: العالي الربيع.

(٤) محتسبة: طالبة الجزاء من الله.

(٥) النجاشي: ملك الحبشة انظره في كتاب «صور من حياة التابعين» للمؤلف، الناشر دار الأدب الإسلامي.

(٦) شدَّ أزرهم: قوَاهُم.

عنهم، فعزم فريق منهم على العودة إلى مكّة، يحدوهم^(١) الشّوق
ويدعوهم الحنين...
فكان أُمُّ سلمة وزوجها في طليعة العائدين.

لكن سرعان ما اكتشف العائدون أنّ ما نمّي إليهم من أخبار كان
مبالغاً فيه، وأنّ الوثبة التي وتبها المسلمين بعد إسلام حمزة وعمر، قد
قوبلت من قريش بحملة أكبر.

فافتَّ المشركون في تعذيب المسلمين وترويعهم، وأذاقوهم من
بأسهم ما لا عهد لهم به من قبل.

عند ذلك أذن الرّسول صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه بالهجرة
إلى المدينة، فعزمت أُمُّ سلمة وزوجها على أن يكونا أول المهاجرين
فراراً بدينهما وتخلصاً من أذى قريش.

لكن هجرة أُمُّ سلمة وزوجها لم تكن سهلاً ميسراً كما خيّل لهما،
وإنما كانت شاقةً مرّة حلّفت وراءها مأساةً تكون دونها كلُّ مأساة.

فلنترك الكلام لأُمِّ سلمة لتروي لنا قصّة مأساتها...
فشعورها بها أشدُّ وأعمق، وتصويرها لها أدقُّ وأبلغ.

قالت أُمُّ سلمة:

(١) يحدوهم الشّوق: يسوقهم الشّوق.

لما عزم أبو سلمة على الخروج إلى المدينة أعدَّ لي بعيراً، ثمَّ حملني عليه، وجعل طفلنا سلمة في حجري، ومضى يقود بنا البعير وهو لا يلوِي^(١) على شيء.

وقبل أن نفصل^(٢) عن مكَّةَ؛ رأنا رجالٌ من قومي بني «مخزوم» فتصدَّوا لنا وقالوا لأبي سلمة:

إنْ كُنْتَ قدْ غلَبْتَنَا عَلَى نفْسِكَ، فَمَا بَالِ امْرَأْتِكَ هَذِهِ؟!...
وَهِيَ بَنْتُنَا، فَعَلَامْ نَتَرَكُكَ تَأْخِذُهَا مَنَّا وَتَسِيرُ بَهَا فِي الْبَلَادِ؟!..
ثُمَّ وَبَوْا عَلَيْهِ، وَانْتَزَعُونِي مِنْهُ انتِزاعًا.

وَمَا إِنْ رَأَاهُمْ قَوْمٌ زَوْجِي بَنُو «عَبْدُ الْأَسْدِ» يَأْخُذُونِي أَنَا وَطَفْلِي،
حَتَّىْ غَضِبُوا أَشَدَّ الغَضْبِ وَقَالُوا:
لَا وَاللهِ لَا نَتَرَكُ الْوَلَدَ عِنْدَ صَاحِبِتِكُمْ بَعْدَ أَنْ انتَزَعُوهَا مِنْ
صَاحِبِنَا انتِزاعًا...
فَهُوَ ابْنُنَا وَنَحْنُ أُولَئِكُ بِهِ.

ثُمَّ طَفَقُوا يَتَحَادِّبُونَ طَفْلِي سَلَمَةَ بَيْنَهُمْ عَلَى مَشَهِدٍ مِنِي حَتَّىْ
خَلَعُوا يَدَهُ وَأَخْذُوهُ.

وَفِي لَحْظَاتٍ وَجَدْتُ نفْسِي مِنْزَقَةَ الشَّمْلِ وَحِيدَةً فَرِيدَةً:
فَرُوجِي ابْجَهَ إِلَىِ المَدِينَةِ فَرَارًا بِدِينِهِ وَنَفْسِهِ... .

(١) لا يلوِي على شيء: لا يقف عند شيء ولا ينتظر.

(٢) قبل أن نفصل عن مكَّةَ: قبل أن نخرج منها.

وولدي اخطفه بنو «عبد الأسد» من بين يديّ محطّماً
مهيضاً^(١)...

أمّا أنا فقد استولى عليّ قومي بنو «مخزوم»، وجعلوني عندهم ...
ففرق بيّني وبين زوجي وبين ابني في ساعٍ.
ومنذ ذلك اليوم جعلت أخرج كلّ غادة إلى الأبطح، فأجلس في
المكان الذي شهد مأساتي، وأستعيد صورة اللحظات التي حيل فيها
بيّني وبين وولدي وزوجي، وأظلّ أبكي حتّى يخيم على الليل.
وبقيت على ذلك سنةً أو قريباً من سنةٍ إلى أن مرّ بي رجلٌ من بني
عمي فرقَ لحالِي ورحمني وقال لبني قومي:
ألا تطلقون هذه المسكينة!! فرقتُ بينها وبين زوجها وبين ولدها.
وما زال بهم يستلذن قلوبهم ويستدرُّ عطفهم حتّى قالوا لي: الحقي
بزوجك إن شئت.

ولكن كيف لي أن الحق بزوجي في المدينة وأترك ولدي وفلذة^(٢)
كبدي في مكة عند بني «عبد الأسد»؟!
كيف يمكن أن تحدأ لي لوعة أو ترقأ لعياني عيرة^(٣) وأنا في دار
الهجرة وولدي الصغير في مكة لا أعرف عنه شيئاً؟!!.

(١) مهيضاً: مزقاً مكسراً.

(٢) فلذة كبدي: قطعة كبدي.

(٣) ترقأ لعياني: تجف لعياني دمعة.

ورأى بعض الناس ما أعااج^(١) من أحزاني وأشجاني فرّقت قلوبهم
لحالي، وكلّموابني «عبد الأسد» في شأني^(٢) واستعطفوهم عليّ...
فردُوا لي ولدي سلمة.

لم أشاً أن أترى في مكّة حيّ أجد من أسافر معه، فقد كنت
أخشى أن يحدث ما ليس بالحسبان فيعيوني عن اللّحاق بزوجي
عائقٌ...

لذلك بادرت فأعددت بعيري، ووضعت ولدي في حجري،
وخرجت متوجّهةً نحو المدينة أريد زوجي، وما معني أحدٌ من خلق الله.
وما إن بلغت «التنعيم»^(٣) حتّى لقيت عثمان بن طلحة^(٤) فقال:
إلى أين يا بنت «زاد الرّاكب»؟!
فقلت: أريد زوجي في المدينة.
قال: أو ما معك أحد؟!
قلت: لا والله إلّا الله ثمّ بنى هذا.

(١) أعااج: أعاني.

(٢) في شأني: في أمري.

(٣) التنعيم: مكان على ثلاثة أميال من مكّة.

(٤) عثمان بن طلحة: كان حاجب بيت الله في الجahليّة، أسلم مع خالد ابن الوليد
وشهد فتح مكّة، فدفع إليه الرّسول عليه الصّلاة والسلام مفتاح الكعبة وكان يوم رافق
أم سلمة مشركاً.

قال: والله لا أتركك أبداً حتى تبلغى المدينة.

ثمَّ أخذ بخطام^(١) بعيري، وانطلق يهوي بي...

فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قطُّ أكرم منه ولا أشرف، كان إذا بلغ منزلًا من المنازل ينبع بعيري، ثمَّ يستأخر عنِّي، حتى إذا نزلت عن ظهره واستويت على الأرض دنا إليه وحطَّ عنه رحله، واقتاده إلى شجرة وقىده فيها.

ثمَّ ينتهي عنِّي إلى شجرة أخرى فيضطجع في ظلِّها.

فإذا حان الرَّواح إلى بعيري فأعدَّه، وقدَّمه إلىَّ، ثمَّ يستأخر عنِّي ويقول: أركبي ... فإذا ركبت، واستويت على البعير، أتى فأخذ بخطامه وقاده.

وما زال يصنع بي مثل ذلك كلَّ يوم حتى بلغنا المدينة، فلما نظر إلى قرية «قباء»^(٢) لبني عمرو بن عوفٍ قال: زوجك في هذه القرية، فادخليها على بركة الله، ثمَّ انصرف راجعاً إلى مكَّة.

(١) الخطام: حبلٌ يجعل في عنق البعير ليقاد به.

(٢) قباء: قرية في ضواحي المدينة تبعد عنها ميلين، وفيها مسجد قباء أول مسجد أسس على التقوى.

اجتمع الشَّمل الشَّتَّى^(١) بعد طول افتراقٍ، وقرَّت عين أمُّ سلمة بزوجها، وسعِد أبو سلمة بصاحبته وولده... ثمَّ طفت الأحداث تضيي سراغاً كلمح البصر.

فهذه «بدرٌ» يشهدها أبو سلمة ويعود منها مع المسلمين، وقد انتصروا نصراً مؤزِّراً^(٢).

وهذه «أحدٌ» يخوض غمارها بعد «بدرٍ»، ويُبلي فيها أحسن البلاء وأكرمه، لكنه يخرج منها وقد جرح جرحاً بليغاً، مما زال يعالجه حتى بدا له أنه قد اندلل^(٣)، لكنَّ الجرح كان قد رُمَّ على فسادٍ^(٤) فما لبث أن انتكأ^(٥) وأنزل أبو سلمة الفراش.

وفيما كان أبو سلمة يعالج من جرحه قال لزوجه: يا أم سلمة، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(لا تصيب أحداً مصيبة، فيسترجع^(٦) عند ذلك ويقول:
اللَّهُمَّ عندك احتسبت مصيبي هذه...
اللَّهُمَّ أخلوفي خيراً منها، إلَّا أعطاه اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ...).

(١) الشَّتَّى: المفرق.

(٢) مؤزِّراً: قوياً مبيناً.

(٣) اندلل: تماثل للشفاء.

(٤) رم الجرح على فساد: يعني صلح في الظاهر وهو فاسد في الحقيقة.

(٥) انتكأ: انفتح.

(٦) يسترجع: يقول إنا لله وإنا إليه راجعون.

ظلَّ أبو سلمة على فراش مرضه أياماً ... وفي ذات صباح جاءه رسول الله ﷺ ليعوده، فلم يكدر ينتهي من زيارته ويتجاوز باب داره، حتى فارق أبو سلمة الحياة.

فأغمض النبي عليه الصلاة والسلام بيديه الشريفتين عينيه صاحبه، ورفع طرفه إلى السماء وقال:

(اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَبِي سَلْمَةَ، وَارْفَعْ دَرْجَتَهُ فِي الْمَقْرَبَيْنِ ...)

وأخلفه في عقبه^(١) في الغابرين.

واغفر لنا وله يا رب العالمين ...

وأفسح له في قبره، ونور له فيه).

أمّا أمّ سلمة فتذكرت ما رواه لها أبو سلمة عن رسول الله ﷺ

فقالت:

اللَّهُمَّ عَنْدَكَ أَحْتَسِبُ مَصِبَّتِي هَذِهِ ...

لَكَنَّهَا لَمْ تُطِبْ نَفْسَهَا أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَخْلُفْنِي^(٢) فِيهَا خَيْرًا مِنْهَا؛

لأنَّها كانت تتساءل: ومن عساه أن يكون خيراً لي من أبي سلمة؟!.

لَكَنَّهَا مَا لَبِثَتْ أَنْ أَتَمَّتَ الدُّعَاءَ ...

حزن المسلمين لمصاب أم سلمة كما لم يحزنوا لمصاب أحدٍ من قبل ...

(١) أخلفه في عقبه: كن عوضاً عنه لأولاده وأهله.

(٢) أخلفني فيها خيراً منها: عوضني عنها ما هو خير منها.

وأطلقوا عليها اسم «أيم^(١) العرب» ...

إذ لم يكن لها في المدينة أحد من ذويها غير صبية صغار كرغرب
القطا^(٢).

شعر المهاجرون والأنصار معاً بحق أم سلمة عليهم، فما كادت
تنتهي من حدادها على أبي سلمة حتى تقدم منها أبو بكر الصديق
يخطبها لنفسه، فأبانت أن تستجيب لطلبه ...

ثم تقدم منها عمر بن الخطاب؛ فردّته كما ردّت صاحبه ...

ثم تقدم منها رسول الله ﷺ فقالت له:
يا رسول الله، إنّ في خللاً^(٣) ثلاثة:

فأنا امرأة شديدة الغيرة فأخاف أن ترى مي شيئاً يغضبك فيعذبني
الله به.

وأنا امرأة قد دخلت في السن^(٤).

وأنا امرأة ذات عيال.

فقال عليه الصلاة والسلام:

(١) الأيم: المرأة التي فقدت زوجها.

(٢) كرغرب القطط: كفرخ القطط التي لم ينجبها، والقطط: نوع من اليمام يؤثر في الصحراء مفرده قطة.

(٣) خللاً: صفات.

(٤) دخلت في السن: جاوزت سن الزواج.

وأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ غَيْرِكَ فَإِنِّي أَدْعُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَذْهَبَهَا
عَنِّكَ.

وأَمَّا ذَكَرْتَ مِنَ السُّنْنِ فَقَدْ أَصَابَنِي مِثْلُ الَّذِي أَصَابَكَ...

وأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنَ الْعِيَالِ، فَإِنَّمَا عِيَالَكَ عِيَالِي).

ثُمَّ تَزَوَّجُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أُمَّ سَلَمَةَ؛ فَاسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهَا،
وَأَخْلَفَهَا خَيْرًا مِنْ أَبِي سَلَمَةَ.

وَمِنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ لَمْ تَبْقَ هَنْدُ الْمَخْزُومِيَّةُ أُمًا لِسَلَمَةَ وَحْدَهُ؛ إِنَّمَا
غَدَتْ أُمًا لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ.

نَصْرَ اللَّهِ وَجْهَ أُمِّ سَلَمَةَ فِي الْجَنَّةِ وَرَضِيَ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا^(*).

(*) للاستزادة من أخبار أُمِّ المؤمنين اُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا انظر:

١ - الإصابة: ٤٥٨ / ٤ «الترجمة» . ١٣٠٩.

٢ - الاستيعاب «على هامش الإصابة» : ٤٥٤ / ٤.

٣ - تهذيب التهذيب: ٤٦٥ - ٤٥٥ / ١٢.

٤ - تاريخ الإسلام للذهبي: ٩٨٠ - ٩٧٣.

٥ - البداية والنهاية: ٢١٤ / ٨ - ٢١٥.

٦ - صفة الصفوية: ٢١٠ - ٢٠ / ٢.

٧ - شذرات الذهب: ٧٠٠ - ٦٩١ / ١.

٨ - أسد الغابة: ٥٨٩ - ٥٨٨ / ٢.

٩ - تقريب التهذيب: ٦٢٧ / ٢.

١٠ - الأعلام مراجعة: ١٠٤ / ٩.

١١ - ابن كثير: ٩١ / ٤.

صور من حياة الصحابيات

هذا الكتاب يحوب بنا في رحاب حياة المرأة المسلمة التي عاشت في كنف الرَّسُول الْكَرِيم ﷺ من خلال صور متعددة تعبّر عن المنهج الإسلامي القويم الذي وضع إلَّا سُس حقوق المرأة وواجباتها ...

فتحت ظله بايُّع على ما بايُّع عليه الرجال، ورسمت أسمى معانٍ البذل والعطاء في سبيل ذلك، ولم تقتصر خصائص المرأة المسلمة على أنها مؤمنة راسخة إلَّا يمان وزوجا وأما من الطراز إلَّا أول، ربت فأحكمت وأصيَّت فاحتسبت بل كانت فوق ذلك كلَّه مجاهدة في سبيل الله فخاضت المعارك وضمدت الجراح، وحملت الزاد وأصلحت السهام، وسُكِّبَت الماء في حلوق العطاش وهي يجودون بنفسهم في سبيل الله.

إنها حياة المرأة المسلمة بكل ما فيها من سمو وفخار.